ذكريات ورسائل لم تنشر

مي زيادة وأشهر الأدباء

تأليف

طاهر الطناحي

تقديم ودراسة

د. خالد محمد غازي

الكتاب: ذكريات ورسائل لم تنشر

الكاتب: طاهر الطناحي

تقديم ودراسة : د. خالد محمد غازي

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الطناحي ، طاهر
ذكريات ورسائل لم تنشر / تأليف : طاهر الطناحي ، تقديم ودراسة : د. خالد محمد غازي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٨١ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٧ – ٨١٤ – ٤٤٦ –٩٧٧ –٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٥٢٨ / ٢٠١٨

ذكريات ورسائل لم تنشر





مقدمة

مي زيادة . . ظاهرة فريدة في عصرها

قال الذين عرفوا "مي" والتقوا بها إنها كانت ربعة القوام، لم تملأ جسمها، ولم تكشف عن نحافة.. مستديرة الوجه، أما لون بشرتها فحنطي مشرق باسم شفاف، يجلل وجهها شعر أسود فاحم السواد، تنوس ضفيرته المجدولة أوضفيرتاه، على عاتقها بربطة حريرية.

وتلعب على شفتيها ابتسامة الخفر، فكانت من أبعد النساء عن الاسترجال وأشدهن أنوثة، فكانت كل حاسة من حواسها وجارحة من جوارحها تنم عن ذكائها، فعيناها اللامعتان وتعبيرها الحار، ولطف إشاراتها وحسن حديثها، كل ذلك جعلها تؤثر في مستمعيها بحديثها إلى جانب ما في شخصيتها من اللطف والدعة واللين.

تقول السيدة هدى شعراوي عن خلق ميّ: ".. لقد رأيت فيها إنسانا غير عادي، لقد حباها الله – وهوواسع الفضل – بعقل كبير، ولكن قلبها كان أكبر من عقلها.. فقد كان ذلك القلب يتسع لمعان شتى من الرحمة والعطف والحنان، فما عرفتها تدنت إلى دنية أو تنزلت إلى أسفل.. وكانت واسعة آفاق التفكير، فما عرفتها وقفت عند حد محدود،

وكانت بعيدة الإدراك فما رأيت منها قصورا فيه.. ومع تلك الصفات المحبوبة، والمزايا الموهوبة كانت بعيدة عن الغرور، منزهة عن الانخداع، فما عرفتها زهيت زهيت بعلم أو تاهت بذكاء أو أدلت بتفكير.. ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضع جميل، وبساطة محبوبة.. ولم تكن مي على وسانتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها، وروحها أجمل من صورتها.. فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضأل نصيبا من الجاذبية، لقد كان يجمل مي بين الجميلات، ويزينها بينهن.. شيء خفي لعله هوالذي حير الشاعر فقال:

شــيء بــه فــتن الــورى غيــر الــذي يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سر مستغلق، ولا خفي مبهم، فسر جمالها كان في روحها والجمال المعنوي الروحي هو ضرب من الجمال يسمو على كل جمال[1].

كان بريق الذكاء يتلألأ في عينيها السوداوين اللتين كانتا نبعين للحياة التي لا تفنى، تديرهما في الوجوه والوجود فيضا من الحنان والجمال، وتتلقي بهما سر الطبيعة التي أحبتها صغيرة وتجافت عنها كبيرة، ولو شئنا أن نتصور منطقها ومبسمها لوجدنا العينين والشفتين تتكلم معا بنبرة عذبة مذوبة بالسحر الحلال، فما سألت من شهد

[1] محمد عبد الغني حسن: مي أديبة الشرق والعروبة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٦٨.

مجلسها وسمع حديثها في عز شبابها ونضج ثقافتها – وزحمة المتقربين منها إلا غاب عن حضوره لحظات وانطلق وراء الخيال المجنح، وقد ارتسمت على وجهه لمعات صيتها ونمنمة ملامحها وصدي صوتها في تصوير "مي" بريشة وهمية مغموسة بألوان شعوره وتقديره، ويكاد ذلك الفيض الروحي الجمالي من خلقة "مي" وخصالها يعجز آخرينعن تصوير هذه الإنسانة الموهوبة فيما كانت عليه لمحاتها، وصفاتها ممن عاشروها ورافقوا خطاها حية فارقت دنياها، إذ كانوا يتصورون شكلها وأسلوبها فتونا في فتون دون أن يحددوا مدلولا أو يقيدوا موصوفا لها في هذه المخلوقة الساحرة، وكأنما وصفها ابن الرومي بقوله:

كم غرير بحسنها قال صفها — قلت أمران، هين وشديد

أهي شيء لا تسأم العين منه — أم لها كل ساعة تحدي

على أن أعجب تمثيل وضعها فيه أديب عرفها فقال:"إن ميا في صورتها كانت مثل نغم ميلودي منسجم، كل لحن فيه على حده يجود بصوت،وفي ائتلافه نغم ملائكي واحد،كذلك كانت هيئة مي وملامحها، فعيناها تحيران بما فيهما من شعاع، وأنفها الأقني الذي يمسك بعصا ناظم الجوقة يؤلف قسمات وجهها الذي يحتل فيه الفم الوردي عطر أنوثتها وبسمة فنها[٢].

---

[٢]وداد سكاكيني: مرجع سابق،ص ٢٣، ٢٤.

ورسمت مي لنفسها صورة بديعة لوصف نفسها في رسالة بعثت بها إلى صديقتها السيدة (جوليا طعمة دمشقية) تقول فيها: "أصحيح أنك لم تهتدي بعد إلى صورتي فهاكها استحضري فتاة سمراء كالبن أوكالتمر الهندي، كما يقول الشعراء، أو كالسمك كما يقول متيم العامرية، وضعي عليها طابعا سديميا – فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض – من وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي، وعطش روحي لا يرتوي.. يرافق أولئك جميعا استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم – وهذا هو الغالب دوما – وأطلقي على هذا المجموع اسم مي ترى من يساجلك الساعة قلمها"[٣].

إن جمال الصورة في "مي" لم يكن في لمحات وجهها وحدها، ولا في رشاقة جسمها وحركاتها، وإنما كان نبعه الصافي من أعماقها ومما أوتيت من بصيرة ملهمة وعبقرية فاتنة وأنوثة مهذبة.

كانت صورة وجهها تلوح وتتحرك بسر ترتبط به أغوار نفسها، وكانت هذه النفس، مثل نبع كهربي يعطي النور وجهها الصبوح، وفي الغواني الحسان وجوه تستهوي الأعين بجلودها وملامحها، كما تستهوي الصور المرسومة والتماثيل المنحوتة لفاتنات سابيات، لكن الجمال فيها منعزل عن باطنه الحي وسره المفقود. أما جمالها في صورتها وشخصيتها فكان متمثلا في منطقها وسلوكها، متجسما في ثقافتها وتفكيرها، فياضا في شعورها وأنوثتها، وقد تذوق أفذاذ من الرجال هذا الينبوع من جمال

[٣] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق ص ١١، ١٢.

الأنثى في حقيقته وصورته، وكانت وهي تفيض بهذا الجمال الأسمى على من يلقاها ويعرفها تشعره بعصمة روحية وأدبية تطيف بهما الأبصار في غير رياء أو تمويه.

ولو أدركنا سر هذا الجمال في صورتها وما وراء ملامحها لرددناه إلى ما أوتيت نشأتها الدينية وبيئتها الأولى من إيمان بالله وخشية من عذاب الضمير وطول تفرسها في وجه" البتول" وهي تتأمل في صفاء وجهها، إلى بصيرتها المتفتحة عن إلهام وإخلاص وكيف تفوتنا القدوة التي طبعتها عليها أم كانت معلمتها الأولى؟ أما الأب "إلياس زيادة" فكان يرعاها كالزهرة النضرة في مطلع الربيع، ولا يصدق أن عينيه تريان إنسانا كان هو سبب وجوده في الدنيا وغير نادم من أجله، بل كان يزهو بها ويعتز ويرى في فتاته بشرى نبوغ أصيل[٤].

أما وقد حضرت أمامنا صورة واضحة لمي زيادة فلا بأس أن نرى انطباعات الشعراء حول وصف مي.. يقول إسماعيل صبري مخاطباً مي:

زيني الندى وسيلي في جوانبه لطفا يعم رعايا اللطف رياه

ريحانة أنت في صحراء مجدبة من الخمائل حيانا به الله

وقد خص "شبلي الملاط" شاعر الأرز، مي زيادة بقصيدة نظمها عام ١٩٢٢ منها قوله:

---

(٤) وداد سكاكيني : مرجع سابق، ص ٢٣، ٢٤.

كـــأنَّ الله مـــن سحـــرٍ و درٍ أتـــاح لمـــي لا حظـــة و فاهـــا

وشـــاور أمهـــا لمـــا يراهـــا وشـــاور يـــوم كونهـــا أباهـــا

فجـــاءت مـــيّ معجـــزة تنـــاهى مـــن المعنـــى إليهـــا مـــا تنـــاهى

وإذا كان لكل شيء بداية فحتما ستكون له نهاية.. فكل زهرة مصيرها بعد النضرة والنضج إلى الجفاف والذبول.. هكذا الحال مع مي، سارت حياتها بخطوات سريعة إلى الهموم قبل الأوان، فعرفت الشيخوخة والمحن في ريعان شبابها، فألح عليها الحزن والغم فاكتأبت وزهدت في كل شيء حولها، وتعكرت ملامح وجهها، وإذاكانت قد غابت صورة مي المحسوسة.. فإن صورتها الحقيقية الخالدة ما تزال باقية في مؤلفاتها وآثارها.

يقول الأستاذ العقاد عن شخصيتها: "كانت مثقفة قوية الحجة.. كانت تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية، كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث إنها جليسة علم وفن وأدب وزميلة في حياة الفكر، أي أن اهتمامها كان موزعا بين العلم والأنوثة.."[٥].

وكأنها كانت تقرأ ما تبوح به عيون الأدباء والمفكرين حولها، فكتبت عن العيون تقول:

جميع العيون وجميع أسرار العيون.

---

[٥] فتحي رضوان: مي كتابة وخطيبة، مجلة "أدب ونقد"، القاهرة، ع ١١، ١٩٨٥، ص ١١.

تلك التي يظل فيها الوحي طلعة خبأة.

وتلك التي تكاثفت عليها أغشية الخمول.

وتلك التي يتسع سوادها أمام من تحب، وينكمش لدى من تكره

وتلك التي لا تفتأ سائلة: من أنت؟ وكلما أجبتها زادت استفهاما

وتلك التي تقرر بلحظة: أنت عبدي!

وتلك التي تصرخ: بي احتياج إلى الألم، أليس بين الناس من يتقن تعذيبي؟

وتلك التي تقول: بي حاجة إلى الاستبداد، فأين ضحيتي؟

وتلك التي تبتسم وتتوسل.

وتلك التي يشخص فيها انجذاب الصلاة وانخطاف المصلي.

وتلك التي تظل مستطلعة خفاياك وهي تقول: ألا تعرفني؟

وتلك التي يتعاقب في مياها كل استخبار، وكل انجذاب، وكل نفي،وكل إثبات العيون جميع العيون! ألا تدهشك العيون؟!

وأنت ما لون عينيك، وما معناهما؟ وإلى أي نقطة بين المرئيات أووراءها ترميان؟ ثم إلى مرآتك! وانظر إلى طلسميك السحريين، هل

درستهما قبل اليوم؟ تفرس في عمق أعماقها تتبين الذات العليمة التي ترصد حركات الأنام، وتساير دورة الأفلاك والأزمنة.

في أعماق أعماقها ترى كل مشهد، وكل وجه، وكل شيء.. وإذا شئت أن تعرفني – أنا المجهولة – تفرس في حدقتيك يجدني نظرك في نظرك على رغم منك.."[٦]

كانت ميّ شخصية شرقية أصيلة – فرغم اطلاعها على الأفكار الغربية.. المتطرف منها والمعتدل.. ورغم أن مكتبتها كانت لا تخلو من كتاب جديد في مذهب جديد أو رأي مبتكر، لكنها لم تتأثر بأي رأي هدام أو يخالف شخصيتها الشرقية التي ظلت متمسكة بها، ولم تكتفِ بالقراءة كوسيلة من وسائل المعرفة، بل سافرت إلى أوروبا أكثر من مرة وشاهدت عواصمها، ورأت بعينيها أحوالها ومشاهدها، فلم تأخذ عادة سيئة من الغرب، بل استعملت بصرها كما استعملت بصيرتها في الكتب وما تحمله بين ضفافها، فحافظت على عادات الشرق الموروثة ودافعت عن الشخصية الشرقية فما عرف عنها – إطلاقا– إنها احتقرت عادة أو تقليدا شرقيا حسنا.. ومن مظاهر تمسكها بشرقيتها، أنها أتقنت أكثر من لغة أوروبية كتابة وقراءة، ورغم ذلك لم تتكلم غير العربية.

"ولقد ذكر الأستاذ العقاد أن الأدباء تذاكروا يوما في مجلسها مناقب رجل من أعظم الرجالات في مصر، فشاركتهم إعجابهم به

---
[٦] المؤلفات الكاملة: جـ ٢،ص٣٢٣،٣٢٢ .

وثناءهم عليه، ولكنها استأذنت بعد ذلك أن تؤاخذه أمامهم على أمر صغير.. ولم تكن مؤاخذة (مي) هذا الزعيم، إلا أنه بدأ يحادثها باللغة الفرنسية بعد أن قدمها إليه الأستاذ أحمد لطفي السيد، وأصر هذا العظيم على محادثتها بالفرنسية وأصرت هي على الرد بالعربية"[٧].

لقد غضبت مي من ذلك "الزعيم الأعظم" لأنه لم يخاطبها بلغته ولغتها والحقيقة أن "مي" كتبت ببعض اللغات الأجنبية في صحف ومجلات أجنبية، ولكن هذا لم يكن من قبيل ادعاء العلم، لأنها كتبت لمن لا يعرفون العربية بلغاتهم التي يحسنونها أو يعرفونها، فلم تهجر مي اللغات الأجنبية في سبيل محافظتها على شرقيتها وعروبتها، بل استعملت هذه اللغات لتدافع عن الشرق والعروبة.. تقول عن الشرق "..لقد أعطى الشرق الغرب أديانا وأخلاقا وفلسفة إلهية وأنبياء وإلها، فتلقاها الغرب شاكرا وارتقي بها.. أفيخجلنا أن ننتفع باختباراته الدنيوية وعلمه والدنيا دنيا الجميع كما أن الخالق إله الجميع..؟ "[٨].

وتحث الإنسان العربي على دراسة الآداب الغربية، بحيث يظل ما يبدعه عربيا، ألم يأخذ دانتي فكرة مسرحيته من مصادر عربية، ومع ذلك فقد ظل أدبه إيطاليا؟ ثم ألم يأخذ شعراء فرنسا في القرن السابع عشر من الآداب الإسبانية والعربية والإنجليزية واليونانية واللاتينية، وظل أدبهم فرنسيا.

---

[٧] مجلة الرسالة: القاهرة، ع ٤٣٥ .

[٨] المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص٥٣١ .

ما يلفت نظر دارس شخصيتها أن بسمتها الأولى في الحياة كانت مغلفة بغشاء من الدموع والحزن، حتى أن أول كتاب ترجمته مي، كان عنوانه الأصلي "الحب الألماني"، لكن العنوان لم يرق لها فبدلته إلى "ابتسامات ودموع"، وهذا العنوان يحمل – بلا شك – دلائل قاطعة على ما في شخصيتها، تقول في مقدمة ترجمتها للكتاب "الحب الألماني.. كلا، ليس هذا حبا ألمانيا فقط، بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته، فنسميه "ابتسامات ودموع"، فإن كان ذلك تزييفا لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي.."[٩]

استمع معي إلى مي وهي تتحدث عن نفسها:

"كان ذلك في صيف ١٩١١ وبي تيقظ الفتاة الأول، واستفسارها الصامت إزاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية، وإعجابها المتحفز للاهتمام والتحمس.. وبي كذلك خجلها وحيرتها وترددها.

وكنت كئيبة.. كنت أكتئب لغير سبب، وأكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع، الشاغلة أفراده ليلا ونهارا ..حتى إذا احتميت بحمي الطبيعة وألقيت عليها اتكال روحي رافقت الكآبة حبي واتكالى، الكآبة خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال، والقباحة، والخير والشر، والعدل والظلم، والكره والحب، والفوز والخذلان، إليها تنتهي حركات التأثرفي جميع

[٩] المؤلفات الكاملة: جـ٢ ،ص٦٢١ .

حظائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس.. أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم، وبعجزه عن تحويل الأشياء من مجراها؟ قد يكون.. ولكن الواقع أن التنهد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر، كما أن كل عمر بشري يختم بإرسال الزفرة وإسبال الجفون.كنت قبلئذ أسير لا ألوي على شيء، إن وقعت عيني على شخص، أو طرق سمعي موضوعا نظرت في هذا وذاك نظرة استخبار سطحي، أما هناك فطفقت ألقي على نفسي أسئلة منطلقة من جهلي المتعطش إلى الارتواء.. من أنا؟ ما هو موقفي في الدنيا؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث وتسخطني بعض الوجوه في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوه غيرها؟ لماذا أحب هذه ولا أحب تلك؟ لماذا ينفث في روعي وجوب احترامه، فأسعد بتوجيه عاطفه جليلة إلى موضوع يليق بها، بينما ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزء والامتهان؟ لماذا يفرحني الناس وأفرحهم؟ لماذا يؤلمني الناس وأؤلمهم؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي، هكذا صار كوخي الأخضر سجنا اختياريا، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب، وقد تسنى لي أن أستعرضها وأتفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع أو مجيب.. الفكر! ما أجذب الفكر إذا هو مزج بطلاوة العاطفة وخيمت عليه أوشحة الخيال! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب يضرب جبهتي

ليفسح له فيها وكرا فصار كل موضوع، وكل شخص، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء، وردية ذهبية، فضية.."[١٠]

فكانت تطيل التفكير في غرائب الحياة والتغلغل في أعماق الأشياء للتطلع إلى المجهول أولتفسير اللامعقول، كان هذا من أهم أسباب الكآبة والحزن لديها، لدى تلك الإنسانة المرهفة الحس، التي كانت تتألم لآلامالحياة والأحياء.. وتظل مي تفتش عن السعادة بين ضباب الدموع، وتسأل الله في إحدى قصائدها الفرنسية قائلة:

"يا أيها الخالق! إن الحياة مراحل آلام، وسلسلة أوجاع، ولجة دموع، ومع ذلك فطرت الإنسان على السرور وأعددته للسعادة. أين السعادة السامية الموعودة؟ أفي العلا؟ أم في سمائك الزرقاء الجميلة بين الشموس التي لا تحصى والعوالم اللامتناهية؟ ويتجلى تأثر مي بالطقس الداكن، والجو القاتم فيما كتبته من يوميات على لسان "عائدة"، وما عائدة إلا صاحبتنا مي نفسها! فهي تقول في إحدى هذه اليوميات من صباح يوم الثلاثاء ٧ ماس ١٩١١: "ساعات النهار تسير ببطء، على أن الشمس لم تشرق اليوم إنها تختفي وراء الغيوم، وتتلفع بدثار من الأسرار، الجو رمادي الأديم، والأفق متشابه الألوان في جميع جهاته، والأرض مغتمة حسري، والمطر على وشك الانهيار".

---

[١٠] السابق، ص ٦١٨، ٦١٩.

"هذا الطقس يلقي على نفسي غشاء من الاكتئاب والتخدر.. عندما يكون الجو رماديا كذلك يكون وجداني، إني أوثر الشمس بازغة تبهج العالم، والسماء أوثرها صافية في زرقتها السنية.. والنور أن يغذي النبات ويحيي الأزهار أفضل عندي من أن أرى الرياحين منكسة الورود، والورود ذابلة الكؤوس تحت دفق المطر".

وقد كانت صلبة العود على الآلام، كما كانت تعجب من الناس بأصلبهم على الآلام عودا، وإن ما حملته في حياتها الخاصة من الألم وخاصة بعد موت والديها – وهما عمادها وسندها في الحياة – لما ينوء بإنسان أن يحمله، وكانت النتيجة في النهاية أنها عجزت عن الاحتمال وأن صبرها نفد من طولما فعل الزمان بها، فاستسلمت في آخر الأمر ولكنها كانت – كما كانت – فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها.

وظلت مي – أكثر حياتها – تمجد النفس الكبيرة التي تقوى على الألم ولا تنهزم أمامه إلى أن كان الألم أخيرا أقوى وأكبر من طاقتها ومما تحتمله نفسها فألقت سلاحها، ولها في تمجيد النفوس الكبيرة الصابرة قصيدة فرنسية تقول فيها:

"ما أشرفك أيتها الأنفس التي تجردت من الثروة! وأنت أيتها الأنفس المتجبرة التي لا تحطمها أحداث الدهر!

وما أسمى شموخ الأنف الذي لا يذله الفقر!

وما أنبل القلوب الشهمة التي ثقلها الآلام ولا تخنع.

الفرح يهملك بعد ابتسامه الطويل، والأخطار تحيق بك من كل صوب،والشدائد تمزقك، والدموع السخينة التي تذرفينها في وحدتك تقرحعينيك وتضرم قلبك.. غير أنك ستبقين الكبيرة، فالشرف مقرونبعذابك النبيل، والسعادة تفوق الإدراك والوصف"[١١].

يقول الأستاذ طاهر الطناحي:"لقد كانت "مي" ذات عاطفة مرهفة، وكان الأسى يبدو واضحا في كتاباتها الأدبية، ولعلظروف حياتها التي بدأتها وحيدة، لا تهنأ بإخوة وأخوات يؤنسونها في هذه الحياة الدنيا، إلا أخ واحد لم يعش إلا قليلا، ثم صمت بالموت، هي التي أثرت في نفسها هذا التأثير.. ثم مات والدهاعام ١٩٢٩، ولحقت به والدتها بعد بضع سنوات، بقيت بلا أب، ولا أم،ولا أخ.. وذات ليلة كنت أزورها، فرأيتها جالسة وحيدة، فجري حديث بيني وبينها عن الحياة وغايتها، ومافيها من سعادة وشقاء، قالت: "هل تظن أن في الحياة سعادة أو أننا بالحياة سعداء".. ثم قالت: كأني بابن الفارض يعني "السعادة" بهذه الأبيات:

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوى ... ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ

ويَطرَبُ مَن لم يَدرِها، عندَ ذِكرِها، ... كمُشْتاقِ نُعْمٍ، كلّما ذُكِرَتْ نُعْمُ

على نفسهِ فليبكِ منْ ضاعَ عمرهُ ... وليسَ لهُ فيها نصيبٌ ولا سهمُ

---

[١١] محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص٣٦، ٣٧، ٣٨.

ثم سكتت، نظرت إلى السماء، واغرورقت عيناها بالدموع.."[12]

ورغم ذلك، كانت مي لا تخلو من روح الدعابة يقول الأستاذ طاهر الطناحي [13]، وهو من رواد صالونها ومن المقربين إليها في أواخر أيامها.." ذات مساء أثناء زيارتي للآنسة مي – لحظت على مكتبها صورة رشقتها أمامها، فسألتها قبل أن أتبينها: "لمن تكون هذه الصورة؟"فأمسكتها بيدها، وأطلعتني عليها، فإذا هي للشاعر المرحوم ولي الدين يكن أهداها إليها، وقد كتب تحتها بخطه هذا البيت:

كـل شـيء يـا "مـي" عنـدك غـال   غيـر أنـي وحـدي لـديك رخـيص

وقد حدثتني عنه أنه كان معجبا بها، مشغوفا بحبها وكثيرا ما كان ينظم شعرا فيها سجل بعضه في ديوانه المطبوع، ولم يسجل الآخر.. وقد كانت على الرغم من أنها لم تبادله حبا بحب فإنها كانت تعطف على نفسه الرقيقة، وشعوره المرهف، وكانت تفسح له في زيارتها حتى وهو مريض في أواخر أيامه، فقلت لها إن هذا البيت يدل على لوعة وأسى، وشعور صادق.. غير أن روي "الصاد" روي نادر ثقيل، فما كدت أنتهي من هذه العبارة حتى لمعت عيناها الذكيتان، وأمسكت بريشتها في رقة وهي تهز رأسها، وتعطف عنقها كعادتها في الحديث، وناولتي إياها في ابتسام ماكر وتحد ظريف، وقالت:"إذا كنت تنتقد روي هذا البيت، فإني أطلب منك أن تشطره الآن قبل أن تقوم من مكانك، ولن أسمح لك بالانصراف المباح، ولو جلست هنا إلى الصباح، حتى تجعل الشطر

---

[12] طاهر الطناحي: مرجع سابق، ص ١٣، ١٤.

[13] المرجع السابق: ص ٢٨،٢٩،٣٠ .

شطرين، والبيت بيتين". فأردت التخلص والاعتذار حتى يذهب الليل ويأتي النهار،ولكنها أصرت، وكان في إصرارها لطف وخفة وجمال، فأثار وجداني، وحركت شعوري، فما وسعني إلا أن أتناول منها القلم، بعد دقائق ناولتها هذا التشطير:

كـل شـيء يـا مـيّ عنـدك غـال   يتمنـاه فـي الحيـاة الحـريص

قـد غـلا فـي حمـاك كـل أديـب   غيـر أني وحـدي لـديك رخيص

فلما قرأته انبسطت أساريرها، وطربت، وكانت تطرب للشعر وتحبه. وذات مساء.. زرتها كعادتي، فبعد حديث طريف أخرجت من مكتبتها ورقة مطوية نشرتها أمامي ثم قالت: "لقد أعددت لك الليلة امتحانا ثانيا"! فقلت لها: أو لم يكف امتحان الأسبوع الماضي".. قالت: "هذا بيت لشاعر قديم يسأل فيه سؤالا فعليك أن تجيب عليه شعرا"وهو:

ماذا تقول إذا أتتك مليحة

كحـــــــلاء..   فـــي يـــدها كعـــين الـــديك

فقلت لها: "هذا السؤال عسير، يحتاج إلى تفكير". ثم جئتها في الأسبوع التالي بهذا الجواب:

أصـبو لمبسـمها وطيـب عناقهـا   وأقول هل موتي جوي يرضيك

وأجيبهـا – لـو نـاولتني كأسـها   لا خمـر غيـر سـلافة مـن فيـك

فضحكت في جمال، وقالت: "لعلك من العشاق المتيمين" قلت لها: "إنني متيم بنبوغك"، قالت:"فاحتج على ذلك" قلت: "أنت التي أثرت شعوري، وأفشيت سري".. فابتسمت في لطف وأدب.. وبعد انتهاء المجلس انصرفت، ثم كان صباح اليوم التالي، فبعثت إليها بهذين البيتين:

أفشي لها الشعر ما في القلب من كعد فقالت: "احتج" قلت الله في كبدي..

الله يـــا "مـــي" فـــي نفـــس معذبـــة تشكو إليك، ولا تشكو إلى أحد ..

والمواقف والرسائل التي يضمها هذا الكتاب والتي جمعناها للكاتب الكبير طاهر الطناحي بمثابة إضافة رقيقة تجعلنا نعرف كيف كان الأدباء يعشقون ويحبون ويعبرون عن مشاعرهم من خلال ابداعاتهم ومواقفهم الانسانية والابداعية .

د. خالد محمد غازي

أديبان .. في غرام "ميّ"

تزاحم على صداقة أديبة الشرق الآنسة "مي" كثير من كبار الأدباء والشعراء، وكان في مقدمة هؤلاء الأصدقاء المعجبين أدباء نابغان أحدهما في مصر، وهو المرحوم أنطون الجميل، والثاني أحد مواطنيها اللبنانيين الذين استوطنوا نيويورك بوهو المرحوم جبران خليل جبران. وقد بلغت هذه الصداقة إلى الحب الروحي والغرام الرفيع ...

أنطون الجميل

هو الأديب الكبير الذائع الصيت. هاجر إلى مصر من لبنان سنة ١٩٠٩. وكان قبل هجرته يشتغل بالتدريس في مدارس بيروت. ثم أنشأ في مصر مجلة "الزهور" وكانت مجلة أدبية راقية. ثم هجر صناعة الأدب إلى وظائف الحكومة، فتولى منصباً رفيعاً في وزارة المالية إلى أن أحيل إلى المعاش، فتولى رياسة تحرير الأهرام إلى أن ترقى.

تعرف بالآنسة هي بعد هجرته إلى مصر، وكان صديقاً لعائلتها، وكانت وقتئذ في سن الخامسة والعشرين، وكانت هي دون ذلك بقليل، وقد بدأت تحرر فصولاً في جريدة والدها "المحروسة" بعنوان: "يوميات فتاة". وكان أنطون الجميل يتابع هذه الفصول، ويطرب لها، ولكاتبتها

الفتاة الناشئة الجميلة. وذات يوم صدرت لها "اليوميات" بمقال عنوانه: "غرفة في مكتبة". وكانت وقتئذ تتردد على الجامعة المصرية القديمة للدراسة، فخطر لها أن تكتب يوماً عن غرفة مكتبتها، فوصفتها أبدع وصف، أعجب به أنطون الجميل الذي كانت نفسه تمتلىء بالإعجاب بهذه الفتاة، فأرسل إليها هذا الخطاب بتاريخ **١٥** أبريل سنة **١٩١٥**. وهو يتم عما كان لمي في نفسه من حب خفي عميق كما أن فيه فلسفة وأدباً

الخطاب الأول :

"يا مي! ..

"قرأت اليوم ما كتبته في يوميات فتاة عما جال في صدرك من العواطف أثناء تلك الدقائق الوجيزة التي قضيتها بين صور مشاهير الكتاب في إحدى غرف الجامعة المصرية، وتلوث على مهل كمن يتلو صلاة، أو يترنم بأنشودة ما أوحي إليك من الالهام: منظر أمراء الفكر مصورين على الجدران من ديكارت، وكورنيل، وراسين، وموليير، إلى فولتير، وهوجو.

"ما أجمل هؤلاء الرجال، بل أنصاف الألهة، تذيع مفاخرهم – بعد أجيال – فتاة شاعرة، وتمجد أرواحهم بلغة لم يعرفوا منها إلا الاسم، وليدة جيل الزيتون، وربيبة جبل الأوز، وفتاة وادي النيل، تنشر مآثر عظماء أبناء السين بلغة سكان المضارب.

"تلك يا مي .. ما أجمل خلود الفكر .. أليس هو أدعى إلى الغبطة، من خلود النفس؟!

"أنت لست بالغريبة من هذه الأرواح الخالدة، كما أنها ليست بالغريبة عنك، فمحبو الجمال، كمحبي الحقيقة ... أولاد طين واحد، بل أبناء أسرة واحدة.

"أنا ثم تقع عيني على هذه الصور التي وصفتها، ولكني أشك في أن المصور الذي رسم بألوانه هيكلها الفاني قد أجاد أجادتك حين صورت بألفاظك وعباراتك روحها الخالدة، وفكرها الباقي.

"أنا لا أكتب إليك مقرظاً، فلقد طالما عرفك المعجبون بأدبك الطاهر، وعلمك الوافر، كاتبة تستولد فؤادها الرقيق أسمى العواطف، فتلبسها مما تحكيه مخيلتها الفنية حلة قشيبة، وتجملها بجواهر عقلها السليم .. فلا بدع إذا وصفت فأبدعت.

"لا .. أنا لا أكتب لأقرظ تلك التي تقرها أعمالها وحياتها الفكرية، بل لأدون خواطر جالت في الصدر لدى تلاوة تلك الصفحة من اليوميات، فحملت القلب على أنباج التأمل والتفكير، دونت هذه الأفكار كما دونت تأملاتك اللطيفة في تلك الغرفة.

"صدقت: وأن للغرف أرواحاً لو تكلمت الجدران فكانت أنصح من هوجو وفولتير .. وصدق الشاعر العربي:

واستجمعت دار هند ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار.

"أي نفس شاعرة لا تحس مثل ذلك! .. أليس القائل:

والدار تملكني – ويلي – وصاحبها:

ففي مليكان: رب الدار والدار "أَصدق وأدرى بثنيات النفس البشرية من المتنبي حيث يقول:

ومـا حـب الـديار شـغفن قلبـي ولكـن حـب مـن سـكن الـديارا

"على أن المتنبي قد كمل فكره هذا يوم قال:

لـك بمنـازل فـي القلـوب منـازل أقفرت أنت، وهن منك أو أهل

"ألم يدرك شعراء العرب هذه العاطفة أحسن من سواهم حينما كانوا يستهلون قصائدهم بتحية الطلال البالية، وندب الربوع الدارسة؟!

"أنا لا أمر بمكان فيه شيء من بقايا الماضي القريب أو البعيد – أن كان في الماضي قرب أو بعد – إلا واستسلم إلى التأملات المحزنة. كم من النفوس وتألمت وبكت حيث تتألم ونبكي، ورجت وتعزت، حيث نرجو وتتعزى، فتعرفت مثلنا الأمل المحيي، والقنوط المميث!!

"أجل، لعل تلك الأروح تطل علينا من عللها الثاني، وتشاركنا في دموعنا وابتساماتنا. لا شك أنها ترثى لحالنا، بل نضحك منا – نضحك

من أفراحنا، ونحن نعتقد أنه لم يعرف الفرح أحد قبلنا – وتضحك من أحزاننا، ونحن نتوهم أنه لم يشعر بالحزن في قلب غير قلوبنا – وتضحك من حبنا، ونحن نتصور أننا دون سوانا قد اخترعنا الحب! ..

"هذه السطور، يا مي، علقيها على حاشية بحرف ضئيل على متن يومياتك الجميلة، ولعلك فاعلة، فينعكس عليها شيء من نور فكرك الثاقب يجعل لها الرونق في عينك المتأملة.

أنطون الجميل " الخطاب الثاني" :

هذا ما كتبه أنطون الجميل إلى مي سنة ١٩١٥. وكان الإعجاب الأدبي هو الظاهر في إرساله إليها هذا الخطاب الذي يمتليء بالشعور الفياض الذي يدفعه وحبها روحي تقديرها وحبه له.

وقد دامت هذه الصداقة، أو هذا الحب، عدة سنوات، بعث إليها بخطابات كثيرة تذكر منها هذا الخطاب الذي وصلها بتاريخ ١٣ يونيو سنة ١٩٢٦. والذي يكشف فيه عن عاطفته نحوها وحبه لها بوضوح قال:

"صباح الأحد ١٣ يونيو سنة ١٩٢٦".

"يلذ لي يا مي أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب، لأن كل وصف قليل إذا ما ليس بصفاتك، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن

باسمك .. فاسم "مي"، وكفاك به من وصف ولقب، قد أصبح في هذا الجيل يرادف حسن البيان، وفصاحة اللسان، ونبوغ العقل، وكبر القلب!.

"وبعد، فقد طلع على كتابك مساء أمس في ليلة العيد مع هلال الشهر، محوطاً بهالة من نور، هو نور نفسك الفياض، لا عجب إذا تقبلت ما فيه من عواطف سامية، وما معه من هدية ثمينة شاكراً ممتناً، فإن ما دون ذلك يستوجب الشكر والامتنان، فكيف بذلك كله محلى بما شرفتني به من صداقة غالية!

"على أني ما أتيت إلى آخر كتابم الكريم حتى مازج شعوري هذا شيء من الاحتجاج .. الاحتجاج الشديد على مانبته إلي من النقمة على خطك، والضحك من حروفك. ووالله ما رسم خطك إلا كل بديع طريف، ولا عبرت حروفك إلا من كل سام شريف.

"تذكرين كرماً منك، وتلطفاً ما عانيناه في سبيل عيد المقتطف – يا حبذا عيد المغتطاف يا مي – ويأما أعذب ما كلفنا من عناء وتعب، فقد أتاح لي أن أعرف فيك فوق الكثير مما كنت أعرف من رقة الطباع، وسداد الرأي، والصبر على المكروه، ما زادني إعجاباً برجاحة عقلك، وسمو قلبك. وهل للباحث المنقب ألذ من اكتشاف مثل تلك السجايا؟

"لذلك ما ذكرت تلك الكشوف، وما حملتك في سبيلها من المشقة إلا شعرت بدين جديد لك علي .. سأقرأ كثيراً قاموسك

الفلسفي، وسأنظر طويلاً إلى الالاهنين الجميلتين المرسومتين على الطابع، ولو غضب الأستاذ عطارد!

"وريثما يتسنى لي التشرف بزيارتك قريباً، أرجو أن تتكرمي بقبول أصدق العواطف من المخلص: أنطون الجميل ..".

الخطاب الثالث

وكان المرحوم أنطون الجميل قد زامل الأنسبة مي في الدعوة إلى الاحتفال بالعيد الخمسيني لمجلة المقتطف، وكانا من خطباء هذا الاحتفال الذي أشار إليه في الخطاب السابق الذي يكشف عما يكن لها من حب دفين. ولكن هذا الخطاب الذي بعثه إليها في أكتوبر سنة ١٩٣٨ – وهو واحد من عدة خطابات – يكشف عن عاطفة ظاهرة متبادلة بينها وبينه وصلت إلى درجة الحب الشاغل .. قال:

"أيتها العزيزة:

"ودعتك ليلة سفري، وكانت كلمة وداعك وعداً باللقاء عند عودتي، ولكنك كنت عند عودتي غادرت الإسكندرية إلى مصر، ولما سافرت في آخر الأسبوع الماضي إلى مصر، عرفت أنك مسافرة في اليوم التالي إلى الإسكندرية .. وعند رجوعي من الإسكندرية، وجدت أنك لا تزالين في مصر .. وهكذا شئت أن نلعب (الاستغماية) cacho بين الإسكندرية ومصر.

"ساءني جداً ما أصاب عينك اليمنى – سلمت عينك اليمنى منهما واليسرى – بل سلمت في كلياتك وجزئياتك. وقد تجدين في هذا الدعاء الخالص، وهذا التمني الصادق شيئاً من الأنانية مادمت تعتقدين أن الأنانية أساس جميع أعمالنا وعواطفته، فليكن ذلك .. أليس ورم جفنك الذي أخرك من الكتابة، فحرمني التمتع بكتابك قبل اليوم"..

الخطاب الرابع

وسافر إلى الإسكندرية في ذلك الحين. وكان من عادته أن يودعها مرة أخرى من محطة القاهرة بالتليفون قبل قيام القطار مكرراً لها تحياته ووداعه، ولكنه في هذه المرة حاول أن يتصل بها تليفونياً، فلم يستطيع، فيعث إليها بهذا الخطاب الذي أمضاه بإمضاء "لوتوبيبى" أي الطفل الآخر. وقد جاء فيه بعد التحية والأشواق:

"...غادرت القاهرة أمس. وقد حاولت كثيراً أن أخاطبك تليفونياً من المحطة قبل السفر، فلم أفلح. لأن جواب السيدة عاملة التليفون كان دائماً: "مابيردش" قالت لي ذلك بالعربية والفرنسية والإيطالية. نحن نعرف الشيء الكثير من معاكسات سيدات التليفون، ولكنه ما ضايقتني مرة مثل هذه المرة، فسلمت أخيراً أمري إلى الله.. ولا أعرف الآن موعد رجوعي إلى القاهرة، فإن الأحوال لم تستقر، ولكني أتمنى أن يكون ذلك قريباً.

"وأنت .. كيف أنت؟ .. أرجو أن تكوني على ما أرجوه لك من الصحة والهناء؟

"بلغت إلى البحر ما زودتني له من سلام وتحيات .. الساعة الآن متأخرة من الليل. ولا يسعني إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة "يعني شرفة منزلها، ذات الفضل العميم على في مثل هذه الساعة .. فأقف طويلاً من الكتابة ضائعاً في بحار الذكريات .. بل أن الكلمات تعصاني، فأبحث عنها ولا أجدها.

"استودعك الله يا بيبي على أمل لقائك بخير وعافية. وقد أصبحت أنا لوتربيبي".

بين مي وجبران

أحبت مي جبران خليل جبران، وأحب جبران مياً، دون أن يرى أحدهما الآخر أو يجتمعا معاً مرة واحدة، فقد عاش في أمريكا طول حياته، ولم يخرج منها إلا حين وفاته سنة **١٩٣١** حيث نقلت جثته إلى بشرى بلبنان، وعاشت هي طول حياتها في مصر لم تسافر منها إلى أمريكا. وكان أول تعارف لهما عن طريق النقد والكتابة الأدبية، ثم تطور ذلك إلى صداقة فحب عميق، فرغبة في الزواج لولا بعض الظروف العائلية!

كان أول تراسل بينهما حين أرسل إليها مؤلفه "الأجنحة المنكسرة" في أواخر أبريل سنة ١٩١٢. وكان عمره وقتئذ ٢٩ عاماً، وكانت هي في نحو الخامسة والعشرين. فقد قرأت هذا الكتاب ككاتبة أدبية، ورأت أن تبدي رأيها في فصوله، فأرسلت إليه خطاباً كان أول خطاباتها اليد. وقد انتقدته في أول شيء تهتم به المرأة وهو الزواج. فقالت:

"... أننا لا نتفق في موضوع الزواج بجبران. أنا احترم أفكارك، وأجل مبادئك لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها، مخلصاً في الدفاع عنها. وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة. وأشاركك أيضاً في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة. فمثل الرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية، بانتخاب زوجها من بين الشبان، متبعة في ذلك ميولها وإلهاماتها الشخصية، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف، حتى إذا ما انتخبت شريكاً لها تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيداً تاماً. أنت تسمى هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال. وأنا أقول نعم سلاسل ثقيلة، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة "ما هي" .. فإذا توصل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد، فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعية، لأن أحكام الطبيعة، فوق كل شيء.

"لم لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها؟. لأن باجتماعها هذا السري، مهما كان طاهراً تخون زوجها، وتخون الاسم الذي تبلته بمليء أرادتها، وتخون الحياة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها.

"عند الزواج تعد المرأة بالأمانة. والأمانة المعنوية تضاهي الأمانة الجدية أهمية وشأناً .. عند الزواج تتكفل المرأة بإسعاد زوجها. وعندما تجتمع سراً برجل آخر تعد مذنبة أراء المجتمع والعائلة والواجب. وربما اعترضت على هذا بقولك أن الواجب كلمة مبهمة بعسر تحديدها في أحوال كثيرة، فليس لنا إلا أن نعلم "ما هي العائلة؟" لنجد الواجبات التي نفرضها على أفرادها، ودور المرأة العائلي هو أصعب الأدوار، وأوضعها وأمرها!

"إني أشعر شعوراً شديداً بالقيود المقيدة بها المرأة. تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب. ولكن إذا جوزنا "لسلمى كرامة" بطلة الرواية، ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف وسموا وذكاء – إذا جوزنا لها الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها، فهل يصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها وهي فتاة أن تختار لها صديقاً غير زوجها، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من زوجها، حتى لو كان القصد من اجتماعها الصلاة عند فتي الأجيال المصلوب "تعني المسيح" – الإمضاء لـ"مي".

هذا هو أول التعارف الكتابي بين مي وجبران، وقد رد عليها مؤيداً وجهة نظرها، مقدراً صراحتها ولباقتها في نقدها. ثم أرسل إليها بعد ذلك كتابين: "المواكب" و"المجنون". فكتبت إليه رأيها فيهما. ثم تعددت الرسائل بينهما، وتطور التعارف إلى إعجاب، ثم إلى صداقة .. ثم إلى حب شديد بين أديبين شابين أودعا في رسائلهما كل ما يشعران من لهفة وولع وغرام .

أطياف من حياة الآنسة مي

كانت المرأة – وما تزال – وحي الأدباء والشعراء والفنانين، فإذا كانت جميلة جذابة، أو مليحة فنانة، أو أديبة نابغة، أثارت ما كمن في النفوس والألباب من شعور ووجدان، ودفعت بوحيها وإيحائها نهضة الفنون خطوات إلى الإمام، لأن مصدر الإبداع هو شعور الفنان ووجدانه، ومبلغ تأثره بالحياة وما فيها من جمال حي تمثله المرأة في شخصها إن كانت من ذوات الجمال المنظور، أو في نفسها، أن كانت من ذوات الجمال الروحي، والنفس العالية، والعقل الناضج، والملكة النابغة.

وكذلك كانت فقيدة الأدب العربي الآنسة مي، فهي الأديبة النابغة ذات الجمال الروحي، والنفس السامية، والذكاء اللماع، والفكر الممتاز والإطلاع الوافر، والحديث الساحر مع ملاحة تأسر القلوب، ونبوغ نسائي ينافس نبوغ بعض الرجال في الإنتاج الأدبي والفكري الذي يفخر به تاريخ الأدب وتاريخ الفكر في العصر الحديث.

وقد دونت في بعض أعداد مجلة "الهلال" طائفة من الذكريات والأحداث الأدبية والرسائل الشائعة التي جرت بينها وبين أصدقائها الأدباء. فقد أتيح لي أن أتعرف إليها قبل وفاتها سنوات. وأفسحت لي

رحمها الله في زيارتها مساء كل أحد من أيام الأسبوع، كما نقضيه معاً في الحديث الأدبي. أو النقاش الاجتماعي، أو الذكريات الطريفة. ولقد كانت أحرص الحرص كله على لقاء هذه الأديبة النابغة في ذلك المساء، لأنها من حديثها العذب، واقتبس من علمها الوفير، وأقضى في جوارها الروحي البديع وقتا سعيداً، لازلت أعتبره أسعد أوقات حياتي.

صورة وبيت

ولقد طالما كان الحديث بيننا يعطف على ذكرى أصدقائها القدماء من كبار الأدباء الذين كانوا يترددون على صالونها الأدبي الذي كانت تعقده يوم الثلاثاء من كل أسبوع فيما بين أوائل الحرب العالمية الأولى، وأواخر سنة ١٩٢٦ وكان يؤمه طائفة من أقطاب الفكر والأدب في الشرق كالأستاذ أحمد لطفي السيد، والشاعر إسماعيل صبري والدكتور شبل شميل، وخليل مطران، وأنطوان الجميل، وداود بركات، ومصطفى صادق الرافعي، وولي الدين يكن، وإضرابهم .. وذات مساء لحظت على مكتبها صورة رشقتها أمامها، فسألتها قبل أن أتبينها: "لمن تكون هذه الصورة" فأمسكتها بيدها، وأطلعتني عليها، فإذا هي للشاعر المرحوم ولي الدين يكن أهداها إليها، وقد كتب تحتها بخطه هذا البيت:

كل شيء يا مي عندك غال ... غير أني وحدي لديك رخيص

وقد حدثتني عنه أنه كان معجباً بها، مشغولاً بحبها. وكثيراً ما كان ينظم شعراً فيها، سجل بعضه في ديوانه المطبوع، ولم يسجل الآخر، وقد

كانت على الرغم من أنها لم تبادله حباً بحب فإنها كانت تعطف على نفسه الرقيقة، وشعوره المرهف، وكانت تفسح له في زيارتها حتى وهو مريض في أواخر حياته بمرض خطير!.

فقلت لها أن هذا البيت يدل على لوعة وأسى، وشعور صادق، وقلب وإله، غير ان روى "الصاد" روى نادر ثقيل.

فما كدت أنتهي من هذه العبارة حتى لمعت عيناها الذكيتان، وأمسكت بريشتها في رقة وهي تهز رأسها وتعطف عنقها كعادتها في الحديث، وناولتني إياها في ابتسام ماكر، وتحدث ظريف، وقالت:

"إذا كنت تنتقد روى هذا البيت، فإني أطلب منك أن تشطره الآن قبل أن تقوم من مكانك، ولن أسمح لك بالانصراف المباح، ولو جلست هنا إلى الصباح، حتى تجعل الشطر شطرين، والبيت بيتين"!.

فأردت التخلص والاعتذار، حتى يذهب الليل ويأتي النهار، ولكنها أصرت، وكان في إصرارها لطف وخفة وجمال، فأثارت وجداني، وحركت شعوري، فما وسعني إلا أن أتناول منها القلم، وبعد دقائق ناولتها هذا التشطير:

كل شيء يا مي عندك غال	يتمناه في الحياة الحريص
قد غلا في حماك كل أديب	غير أني وخدي لديك رخيص

فلما قرأته انبسطت أساريرها، وطربت. وكانت تطوب للشعر وتحبه.

سؤال وجواب

وذات مساء أحد من تلك الآحاد، زرتها كعادتي، فبعد حديث طريف أخرجت من مكتبها ورقة مطوية، نشرتها أمامي ثم قالت: "لقد أعددت لك الليلة امتحاناً ثانياً"!.

فقلت لها: "أو لم يكف امتحان الأسبوع الماضي؟" قال: "هذا بيت لشاعر قديم يسأل فيه سؤالاً، فعليك أن تجيب عليه شعراً" وهو:

مـــاذا تقـــول إذا أتتـــك مليحـــة كحلاء في يدها كعين الديك[1]

فقلت لها: "هذا سؤال عسير، يحتاج إلى تفكير". ثم جئتها في الأسبوع التالي بهذا الجواب:

أصبو لمبسمها وطيب عناقها ... وأقول هل موتى جوي يرضيك

وأجيبها – لو ناولتني كأسها: ... لا خمر غير سلافة من فيك

---

(1) أي في يدها كأس خمر صافية كصفاء عين الديك.

فضحكت في جمال، وقالت: "لعلك من العشاق المتيمين" قلت لها:"إنني متيم بنبوغك" قالت: "فاحتج على ذلك!" قلت: "أنت التي أثرت شعوري، وأفشيت سري". فابتسمت في لطف وأدب ... وبعد انتهاء المجلس انصرفت .. ثم كان صباح اليوم التالي، فبعثت إليها بهذين البيتين:

أفشى لها الشعر ما في القلب من كمد قالت "فاحتج" قلت الله في كبدي

الله يـــا مـــي فـــي نفـــس معذبـــة تشكو إليك، ولا تشكو إلى أحد

مي لم تنظر شعراً

كانت مي تطرب للشعر دائماً وتحبه، وتحفظ القليل منه، ولكنها تقرأ منه الكثير، وكان أسلوبها أسلوباً شعرياً وإن لم يكن منظوماً، وكانت تتمنى لو استطاعت أن تنظم الأبيات أو القصيد، ولكن ملكة الكتابة عندها طغت على ملكة النظم، فلم تنظم شعراً، بل لم تنظم بيتاً كاملاً. وقد حدثتني في معرض الحديث عن ذلك فقالت إنها لم تنظم في حياتها إلا شطراً واحداً، حين اقترح عليها والدها أن تخمس البيت الأول من هذين البيتين:

أرى أثـــارهم فـــأذوب شـــوقاً واسكب في معاهدهم دموعي

وأســـأل مـــن بفـــرقتهم بلانـــي يمـــن علـــي يومـــاً بـــالرجوع

قالت مي: فلم أستطيع إلا أن أقول هذا الشطر الأعرج:

"عرفتهمو فأضحى القلب رقاً ..."

ولي الدين يكن إسماعيل صبري

ولهذا أؤكد أنه ليس صحيحاً ما روى أنها بعثت إلى إسماعيل صبري بيتين، فأجابها عليهما بثلاثة أبيات، فردت هي عليه ببيتين، وأرجح أن يكون أحد أصدقائها هو الذي نظم ما نسب إليها في أحد جلسات الصالون أو أن إسماعيل صبري هو الذي نظمه. فقد جاء في ديوانه:

"وكتب – إسماعيل صبري – تحت بيتين أديبة معروفة – مي – وهما:

فـــــديتك يـــــا هـــــاجري	فهـــــل ترتضـــــي بالفـــــدا
ســـــهرت عليـــــك الـــــدجى	ونحـــــت ولكـــــن ســـــدا

"فأجابها:

أهـــــــاجرتي أطفئـــــــي	لـــــــواعج لا تنتهـــــــي
مضـــت فـــي هـــواك الســـنون	ومـــا نلـــت مـــا أشـــتهي
إذا قيـــــل مـــــات الأديـــــب	بفاتنـــــة ... أنـــــت هـــــي

"فلما قرأت أبياته كتبت تحتها :

زمانـــك قبـــل أن انتهـــى ولا يرجـــــع المنتهـــــى
فحســـــبي أن أزدهـــــي وحســـــبك أن تشـــتهي

هذا ما ورد في الديوان، وليس صحيحاً ذلك الذي نسب إليها لقولها لي – وهي الصادقة فيما تقول – أنها لم تقل طوال حياتها شعراً إلا شطراً واحداً في تلك المناسبة، ولأن تربيتها المحافظة التي يعرفها الجميع، وأخلاقها التي يغلب فيها الوقار والحياء، تأبى عليها أن ترسل شعراً في الحب لأحد من الناس مهما كان صديقاً عزيزاً، وإن كانت لها رسائل غرامية منثورة بينها وبين المرحوم جبران خليل جبران، ولكنها رسائل حب من الطبقة الأدبية الرفيعة، سأكتب عنها فيما بعد.

غرام صبري بالآنسة مي

على أن ما في ديوان إسماعيل صبري من الغزل ليس في الآنسة مي وحدها، لأن معظمه قيل قبل سنة **١٩١١** ولم يعرفها إسماعيل صبري، بل لم تظهر في الحياة العامة إلا منذ سنة **١٩١٣** حين خطبت لأول مرة في حفلة تكريم خليل مطران بمناسبة الأنعام عليه بالوسام المجيدي، ثم صار يتردد هو وكبار الأدباء على صالونها بعد ذلك، وقال فيها شعراً بعضه مشهور، وبعضه لم يشتهر أو لم يعرف. ولعل أكثر ما قاله من النسيب قبل ذلك كان في الأديبة اللبنانية الكسندره أفيرنيوه.

وقد ولدت في بيروت. ونزلت مصر في السنة العاشرة من عمره، وأتمت فيها دراسة اللغة العربية واللغة الفرنسية، وتزوجت مسيوافيرنيوه، وأنشأت مجلة اللوتس، ومجلة أنيس الجليس، والأولى بالفرنسية والثانية بالعربية. وكلتاهما نسائية علمية أدبية، وتمتاز الثانية بأنها فكاهية. وكانت هذه السيدة من أحسن السيدات جمالاً وأخلاقاً وثقافة ومما قاله فيها مصرحاً باسمها:

بـــالله يمـــم يـــا نســـيم الصـــبا   بمصـــر عنـــي دار أكســـندره
وحيهـــا بـــين المهـــا أن بـــدت   فـــي ســـربها مقبلـــة مـــدبره
واذكـــر لهـــا مـــا بيننـــا علهـــا   يـــا عـــاطر الأنفـــاس أن تـــذكره

ولكنها لما عرف الآنسة مي، وكانت في ميعة الصبا وريق الشباب، وهو في كهولته ومطلع شيخوخته، تشبب بها، وهو الشاعر الكبير المرهف الحس، المشبوب العاطفة وأخذ يفيض من معينه العذب، ويتدفق من بحره بالدر النفيس، وكان أول لقاء له حين بعث إلى والدها الأستاذ اليأس زيادة صاحب جريدة المحروسة يطلب أن يزوره ليتعرف إلى فتاته التي أعجبه إلقاؤها وخطبتها في حفلة تكريم مطران، وكانت وقتئذ قد بدأت تكتب في هذه الجريدة "يوميات فتاة" فأجابه الأستاذ بالترحيب، وحدد له موعد الزيارة، فنظم إسماعيل صبري هذه الأبيات:

خبرونـــي اليـــوم أنـــي فـــي غـــد   مـــاليء عينـــي منهـــا ويـــدي
كيـف يبقـى مـن قضـى الليـل على   جـــرف هـــار إلـــى ذا الموعـــد

رب كـــن عـــوني وأخرنـــي إلـــى … أن أرى شمس الضحى من عودي

يـــا أســـاة الحـــي لـــو أجلـــتم … رأيكـــم فـــي إلـــى يـــوم غـــد

رب داء لا يرجـــــــــى بـــــــــرؤه … قـــد شـــفته زورة مـــن مســـعد

وزارها إسماعيل صبري، وكان من أكثر زوارها تردداً على صالونها هو وولي الدين يكن إلي أن توفى سنة ١٩٢٣ وتوفى ولي الدين سنة ١٩٢١. وقد نشر بعض ما قالاه في الآنسة مي في ديوان كل من الشاعرين، ونسى أو فقد البعض الآخر!.

صبري وولي الدين

ونذكر أنهما اجتمعا عندها ذات ليلة من لياليها الأدبية العامرة، فأطلعتها على صورة لها نقلها أحد المصورين حديثاً، فارتجل إسماعيل صبري هذين البيتين:

أرسـلي الشـعر خلـف ظهـرك لـيلاً … واعقديـه مـن فـوق رأسـك تاجـاً

أنـــت فـــي الحـــالتين بـــدر نـــراه … صـــادعاً آيـــة الـــدجى وهاجـــا

أما ولي الدين فقد نظر إلى الصورة، فوجدها قد جلست متكئة بيدها على المقعد، ومسندة عليها خدها كمن يفكر ويستمع لوحي فكره، ثم انتحى ناحية من المجلس، ومكث برهة يكتب، ثم عاد إلى الحاضرين، فأنشد في وصف هذه الصورة:

أوحـــى إليهـــا ربهـــا وحيـــه ألا تراهـــا وهـــي تستســـمع
رقـــت معانيهـــا وألفاظهـــا كأنمـــا ألفاظهـــا أدمـــع
يـا مـي مـا فـي الكـون مـن بهجـة إلا ومــن عينيــك لــي تســطع

ولا يتسع المقام هنا لذكر كل ما قاله هذان الشاعران في هذه الأدبية الكبيرة، وقد رويت من قبل في أحد مقالات الهلال شعراً عنها لولي الدين ولمصطفى صادق الرافعي حين أحبها وتشبب بها، ولكن لم تبادل أحداً من هؤلاء الشيوخ حباً بل أثارت عواطفهم الأدبية، فجاءوا بثروة نفيسة من شعر النسيب لا تقل جودة وبلاغة ورقة عما ورد عن شعراء العربية من هذا الباب في أزهي عصور الأدب العربي. وبحسبي أن أذكر هذه الأبيات للمرحوم إسماعيل صبري التي سمعتها بصوت مي وإلقائها الجميل:

يــا ظبيــة مــن ظبــاء الأنــس راتعــة بــين القصــور تعــالى الله باريــك
هــل النعــيم ســوى يــوم أراك بــه أو ســاعة بــت أقضــيها بناديــك
وهــل يعــد علــى العمــر واهبــه إن لم يجمله نظم الدر من فيك
إن قابلتك الصبا في مصر عاطرة فــأيقني أنهــا عنــي تناجيــك
وأنهــا حملــت فــي طــي بردتهــا قلبــاً بعثــت بــه كيمــاً يحييــك

أحب الشعراء إلى مي

وقد اشتهر عن إسماعيل صبري إنه كان في بعض أسفاره، واضطر إلى التخلف عن صالونها الذي ينعقد بالأدباء كل يوم ثلاثاء، فبعث إليها بهذين البيتين يوم الاثنين، وهما:

روحي علي بعض دور الحي حائمة   كظامي الطير تواقاً إلى الماء
إن لم أمتع بمي ناظري غداً   أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

ولكن مما لم يشتهر ما قاله في ازدحام نوابغ الأدباء في صالونها، وتسابقهم إلى الإعجاب بنبوغها وأدبها، ووصفهم لرقتها حتى قال فيها:

يا من أقام فؤادي إذ تملكه   ما بين نارين من شوق ومن شجن
تفديك أعين قوم حولك ازدحمت   عطشي إلى نهلة من وجهك الحسن
وتستعيذ إذا ألفتك مبتسماً   عن لؤلؤ بالنهى حرزاً من الفتن
جردت كل مليح من ملاحته   لم تشق الله في ظبي ولا غصن
فاستبق للبدر بين الشهب رتبته   تملكه في أوجه عبداً بلا ثمن

ولقد كانت مي تطرب طرباً شديداً كلما راجعت شعر إسماعيل صبري في وصفها، وأنشدته في تلك الليالي التي كنت أزورها فيها، وتقول إن إسماعيل صبري يمتاز على شعراء العصر بلطف ذوقه، ورقة حسنه، وحلاوة جرسه.

وكانت رحمها الله تعتز فيها تعتز به من شعر صبري بهذين البيتين اللذين بعثهما إليها تهنئة بعام جديد، فقال:

يا غرة العلم جوزي الأفق صاعدة　　إلـى السـماء بآمـال المحبينـا

إنـي سـألت لـك الأيـام صـافية　　يـا "مـي" قـولي معـي بـالله آمينـا

الحب الروحي بين الآنسة مي وأنطون الجميل

في ليلة من ليالي الربيع الباسم كنا نتسامر في دار أديبة الشرق الآنسة مي، وكان معنا فقيد الأدب والصحافة أنطون الجميل، فامتد السمر إلى حديث السعادة، ومن هو السعيد في هذه الدنيا؟. فانبرى كل من الحاضرين يعرف السعادة والسعداء بما تهيأ له من تعريف، وروى المرحوم أنطون الجميل قصة في هذا المعنى .. قال:

– مرض أحد الملوك في قديم الزمان، وأشتد داؤه، واستعصى شفاؤه، ثم رأى أطباؤه أنه لا يبرأ من مرضه إلا إذا تدثر بقميص رجل سعيد، فنهض أعوانه ورجال دولته يجوبون أنحاء المملكة، باحثين عن الرجل السعيد ليأتوا الملك بقميصه، ولكنهم ما صادفوا أحداً وسألوه: "هل أنت سعيد؟" إلا كان جوابه: "لا"!

وبينما كان أحد هؤلاء الأعوان يبحث وينقب، لقي في أعالي الجبال راعياً يسوق أمامه قطعياً من الغنم، ومعه قيثارة يعزف عليها أنغاماً شجية، فسأله:

– وأنت .. هل أنت سعيداً؟!

فأجاب الراعي:

– أي والله .. إني لسعيد!

فقال الرجل:

– إذن أسرع وهات قميصك.

ولك ما تريد من المال ..

ولشد ما كانت دهشته حينما أجابه الراعي باسماً: "ولكن ليس لي قميص"!

فأصبحوا من ذلك الوقت يقولون: "الرجل السعيد لا قميص له"..!

فابتسمت المرحومة مي، وقالت: "حقاً .. أن السعادة لا وجود لها. وإذا وجدت فليست مما ينال بالمال. وعندي أن السعادة هي كما قال القائل:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ... ونور ولا نار، وروح ولا جسم

ويطرب من لم يدرها عند ذكرها ... كمشتاق نعم كلما ذكرت نعم

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له فيه نصيب ولا سهم

وأخذت تردد هذه الأبيات التي كانت تمثل معنى من حياتها السعيدة البائسة، الحلوة المرة في آن واحد، فقد عاشت للناس كأديبة، ولم تعش لنفسها كإنسانة، وكانت حياتها الأدبية كالنهر الذهبي العذب، لا ينبع من فياض البحيرات، ولا يصدر من مسارب الأرض، بل ينحدر من رءوس الجبال، وينساب من أفواه السحب، ويخطر بين الصخور في

جلال وروعة، ويعزف في المروج الخضراء بألحان تملأ الوادي بهجة وحياء وطرباً، ويجري في القفار الجدباء، فيحيلها رياضاً زاهرة، وجنات عامرة. وكلما وزع من مياهه زاد اتساعاً وفيضاً، حتى إذا أدى رسالته وملأ البلاد خيراً انصب في البحر واحتضنته الأمواج.

وكذلك الآنسة مي .. كانت حياتها تنساب عذوبتها في عالم الأدب، وتفيض بعبقريتها ونبوغها على الشرقالعربي، وتفتن الأدباء بروحها العذبة، وإنسانيتها الممتازة، ونفسيتها العالية الجذابة، فأحبها الجميع وتعشقها الأدباء، شيوخهم وشبابهم، وهرعوا إلى منتداها، وحرصوا على مجالسها. ومن هؤلاء المرحوم أنطون الجميل، فقد كانت صلته بها صلة أدب وتقدير، ثم تطورت إلى صداقة وإعجاب، ثم كانت مودة وحباً روحياً وحلماً جميلاً، ثم أملا شاغلاً في فترة من فترات الزمان.

عرف أنطون الجميل الآنسة مي منذ بدأت تكتب في جريدة أبيها "المحروسة"، بل لعله عرفها قبل ذلك، وأعجب بأدبها، ثم اجتمع بها في دارها، وكان صديقاً لأسرتها. وكان وقتئذ شاباً، وهي فتاة ناشئة عن عنفوان الصبا ونضارته، فكان طبيعياً أن يفتن شاب أديب بفتاة أديبة. ولم يكن بين الفتيات أديبات في ذلك الحين، إذا استثنينا المرحومة باحثة البادية. وكانت مي تحرر في تلك الجريدة فصولاً تحت عنوان: "يوميات فتاة". وكان أنطون يتابع هذه الفصول، وتهتز نفسه بها، ويطرب قلبه لما فيها من ألمعية أدبية رائعة. وذات يوم كتبت فصلاً بعنوان: "غرفة في مكتبة" فأبدعت ما شاء لها الإبداع في وصف هذه الغرفة وما فيها من

معالم وأعلام، وأعجب أنطون الجميل بهذا الوصف البليغ أيما إعجاب، وكتب إليها رسالة بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٩١٥ مدبجة بأسلوب أدبي رفيع، فيها رقة وحنان، وفيها شعور ومناجاة، وهي تنم عما كان يضمره لمي من إعجاب وتقدير.. قال:

"يا مي..!

"قرأت اليوم ما كتبته في يوميات فتاة عما جال في صدرك من العواطف أثناء تلك الدقائق الوجيزة التي قضيتها بين صور مشاهير الكتاب، في إحدى غرف الجامعة المصرية، وتلوت على مهل كمن يتلو صلاة، أو يترنم بأنشودة ما أوحى إليك من الإلهام – منظر أمراء الفكر مصورين على الجدران من ديكارت، وكورنايل، وراسين، وموليير، إلى فولتير، وهوجو

"ما أجمل هؤلاء الرجال، بل أنصاف الآلهة، تذيع مفاخرهم بعد أجيال فتاة شاعرة، وتمجد أرواحهم بلغة لم يعرفوا منها إلا الاسم، وليدة جبل الزيتون، وربيبة جبل الأرز، وفتاة وادي النيل تنشر مآثر عظماء أبناء السين بلغة سكان المضارب!

"تلك يا مي.. ما أجمل خلود الفكر، أليس هو ادعى إلى الغبطة من خلود النفس؟!..

"أنت لست بالغريبة عن هذه الأرواح الخالدة، كما أنها ليست بالغريبة عنك، فمحبو الجمال، كمحبي الحقيقة. أولاد طين واحد، بل أبناء أسرة واحدة.

كانت أمنية "أنطون الجميل" العيشة بسلام: سلام مع نفسه وسلام مع الغير..

"أنا لم تقع عيني على هذه الصور التي وصفتها، ولكني أشك في أن المصور الذي رسم بألوانه هيكلها الفاني قد أجاد أجادتك حين صورت بألفاظك وعباراتك روحها الخالدة، وفكرها الباقي.

"أنا لا أكتب إليك مقرظا، فلقد طالما عرفك المعجبون بأدبك الزاهر، وعلمك الوافر، كاتبة تستولد فؤادها الرقيق أسمى العواطف، فتلبسها مما تحيكه مخيلتها الفنية حلة تشيبة، وتجملها بجواهر عقلها السليم، فلا بدع إذا وصفت فأبدعت.

"لا.. أنا لا أكتب لأقرظ تلك التي تقرظها أعمالها وحياتها الفكرية، بل لأدون خواطر جالت في الصدر لدى تلاوة تلك الصفحة من اليوميات، فحملت القلب على أثباج التأمل والتفكير.. دونت هذه الأفكار، كما دونت تأملاتك اللطيفة في تلك الغرفة.

"صدقت: (أن للغرف أرواحاً، ولو تكلمت الجدران لكانت أفصح من هوجو وفولتير) وصدق الشاعر العربي:

واستعجمت دار هند ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

"أي نفس شاعر لا تحس مثل ذلك؟.. أليس القائل:

والدار تملكني ويلي وصاحبها فلي مليكان: رب الدار والدار

"أصدق وأدرى بثنيات النفس البشرية من المتنبي حيث يقول:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

"على أن المتنبي قد كمل فكره هذا يوم قال:

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت، وهن منك أواهل

"ألم يدرك شعراء العرب هذه العاطفة أحسن من سواهم حينما كانوا يستهلون قصائدهم بتحية الطلال البالية وندب الربوع الدارسة.

"أنا لا أمر بمكان فيه شيء من بقايا الماضي القريب أو البعيد – أن كان في الماضي قرب أو بعد – إلا واستسلم إلى التأملات المحزنة.. كم من النفوس تألمت وبكت حيث نتألم ونبكي، ورجت وتعزت حيث نرجو ونتعزى فتعرفت مثلنا الأمل المحيي، والقنوط المميت.

"أجل، لعل تلك الأرواح تطل علينا من عالمها الثاني، وتشاركنا في دموعنا وابتساماتنا. لا شك أنها ترثي لحالنا، بل تضحك منا — تضحك من أفراحنا ونحن نعتقد أنه لم يعرف الفرح أحد قبلنا — تضحك من أحزاننا، ونحن نتوهم أنه لم يشعر بالحزن قلب غير قلوبنا — تضحك من حبنا ونحن نتصور أننا دون سوانا قد اخترعنا الحب.

"هذه السطور يا مي، علقيها على حاشية بحرف ضئيل على متن يومياتك الجميلة، ولعلك فاعلة، فينعكس عليها شيء من نور فكرك الثاقب يجعل لها بعض الرونق في عينك المتأملة

أنطون الجميل"

هذا ما كتبه أنطون إلى مي منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، يوم كان شاباً يافعاً في نحو الثلاثين أو يزيد، ولم تكن صلته بها تتجاوز حد الصداقة الأدبية، والتقدير العام، حتى إذا تقدم الزمن، وتقدمت هي في نبوغها وألمعيتها وجاذبيتها، أزداد هذا التقدير، بل تطور إلى عاطفة سامية وإلى حب روحي.. وأن شئت فقل إلى حب عذري، تصوره هذه الرسالة التي بعث بها إليها بتاريخ ١٣ يونيه سنة ١٩٢٦. وهي واحدة من عدة رسائل مسطرة بمداد القلب، وصادرة من أعماق النفس، وخوالج العاطفة والوجدان.. قال.

"يلذ لي يا مي أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب، لأن كل وصف قليل إذا ما قيس بصفائك، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن

باسمك. فاسم "مي"، وكفاك به من وصف ولقب، قد أصبح في هذا الجيل يرادف حسن البيان، وفصاحة اللسان، ونبوغ العقل، وكبر القلب.

"وبعد، فقد طلع على كتابك مساء أمس في ليلة العيد مع هلال الشهر، محوطاً بهالة من نور هو نور نفسك الفياض.. لا عجب إذا تقبلت ما فيه من عواطف سامية، وما معه من هدية ثمينة شاكراً ممتناً، فإن ما دون ذلك يستوجب الشكر والامتنان، فكيف بذلك كله محلى بما شرفتني به من صداقة غالية!

"على أني ما أتيت إلى آخر كتابك الكريم حتى مازج شعوري هذا شيء من الاحتجاج – الاحتجاج الشديد على ما نسبته إلي من النقمة على خطك، والضحك من حروفك.. ووالله ما رسم خطك إلا كل بديع طريف، ولا عبرت حروفك إلا عن كل سام شريف.

"تذكرين كرماً منك وتلطفاً ما عانيناه في سبيل عيد المقتطف – يا حبذا عيد المقتطف يا مي – وياما أعذب ما كلفنا من عناء وتعب، فقد أتاح لي أن أعرف فيك، فوق الكثير مما كنت أعرف من رقة الطباع، وسداد الرأي، والصبر على المكروه، ما زادني أعجاباً برجاحة عقلك وسمو قلبك، وهل للباحث المنقب ألذ من استكشاف مثل تلك السجايا؟.. لذلك ما ذكرت تلك الكشوف، وما حملتك في سبيلها من المشقة، إلا شعرت بدين جديد لك علي.

"سأقرؤ كثيراً (قاموسك الفلسفي). وسأنظر طويلاً إلى الإلهتين الجميلتين المرسومتين على الطابع، ولو غضب الأستاذ عطارد!

"ريثما يتسنى لي التشرف بزيارتك قريباً أرجو أن تتكرمي بقبول أصدق العواطف من المخلص...".

وكانت مي قد زاملت أنطون الجميل في المهرجان الخمسيني لمجلة المقتطف، وكانت هي الداعية إلى هذا المهرجان، وكان كلاهما فيه عاملاً وخطيباً، ولكن أنطون لم ينس صديقة روحه ولم يستطع إخفاء عاطفته نحوها حتى في خطبته، فقد أشار إليها في أثنائها، فقال:

"كان الإسرائيليون يحسبون سبع مرات سبع سنين، فيكون لهم تسع وأربعون سنة، ثم يقدسون سنة الخمسين، فينفخون في بوق الهتاف، وينادون بعتق في الأرض لجميع أهلها، ويرجع كل ملك إلى صاحبه فتكون لهم تلك السنة يوبيلا.

"هذا أصل اليوبيل كما هو مفصل في سفر الأحبار. ويقولون أن الاسم مشتق من كلمة، يوبل العبرية، ومعناها قرن الكبش، وهو البوق الذي ينفخ فيه. وجرت الشعوب على هذه السنة، فجعلت اليوبيل موسم أفراح.

"قامت تنفخ في البوق فتاة يغني اسمها عن وصفها.. نفخت مي في البوق أن هبوا إلى الاحتفاء باليوبيل، فالتف حولها عصبة من رجال

الفضل والأدب في مصر.. نادت مي أن هبوا إلى تكريم العلم فطارت تموجات ذلك النداء المنبعث من صدر فتاة الشرق إلى جميع أنحاء الشرق القريب والبعيد، وتراجع صداه بين أخواننا المهاجرين في العالم الجديد...".

نعم لم ينس أنطون الجميل صديقة روحه حتى في خطبته. ولقد احتفظت هي بهذه الفقرات وحدها من تلك الخطبة بين أوراقها ورسائله التي بعث بها إليها من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٨. وهي الفترة التي لم يشغله فيها شاغل عنها، والتي تعد فترة عاطفية بين أديب وأديبة، حتى قيل أنه عرض عليها الزواج!

كانت إذن روح هذا الأديب الكبير في صدر شبابه وعنفوان فتوته وكهولته تستمد وحيها من الإعجاب بمي، وكانت عاطفته نحوها، وتقديره لنبوغها، وحبه لروحها العذبة، مما آثار نفسه الأدبية وقلبه الخفاق.

ولعل من الطريف الذي يهم مؤرخ الأدب، أن نشير إلى تلك الرسالة الرقيقة التي بعث بها إليها في أكتوبر سنة ١٩٢٨ فهي تكشف عن مكنونات نفسين تحمل كل منهما للأخرى مودة صادقة وعاطفة مخلصة.. قال:

"أيتها العزيزة

"ودعتك ليلة سفري. وكانت كلمة وداعك وعداً باللقاء عند عودتي، ولكنك كنت عند عودتي غادرت الإسكندرية إلى مصر، ولما

سافرت في آخر الأسبوع الماضي إلى مصر عرفت أنك مسافرة في اليوم التالي إلى الإسكندرية. وعند رجوعي من الإسكندرية وجدت إنك لا تزالين في مصر. وهكذا شئت أن نلعب cache- cache بين الإسكندرية ومصر.

"ساءني جداً ما أصاب عينك اليمنى. سلمت عيناك اليمنى منهما واليسرى، بل سلمت في كلياتك وجزئياتك. وقد تجدين في هذا الدعاء الخالص، وهذا التمني الصادق، شيئاً من الأنانية. ما دمت تعتقدين أن الأنانية أساس جميع أعمالنا، وعواطفنا، فليكن ذلك.. أليس ورم جفنك الذي أخرك عن الكتابة فحرمني التمتع بكتابك قبل اليوم..!".

وقد سافر في ذلك الحين إلى الإسكندرية، وكان من عادته أن يخاطبها من المحطة قبيل قيام القطار مكرراً لها تحياته ووداعه، ولكنه في هذه المرة حاول أن يتصل بها تليفونياً، فلم يستطع، فبعث إليها برسالة جاء فيها:

".. غادرت القاهرة أمس، وقد حاولت كثيراً أن أخاطبك تليفونياً من المحطة قبل السفر فلم أفلح، لأن جواب السيدة عاملة التليفون كان دائماً (ما بيردش). قالت لي ذلك بالعربية، والفرنسية، والإيطالية.. نحن نعرف الشيء الكثير من معاكسات سيدات التليفون، ولكنها ما ضايقتني مرة مثل هذه المرة فسلمت أخيراً أمري لله.. ولا أعرف الآن موعد

رجوعي إلى القاهرة فإن الأحوال لم تستقر، ولكني أتمنى أن يكون ذلك قريباً.

"وأنت، كيف أنت؟. أرجو أن تكوني على ما أرجوه لك من الصحة والهناء.

"بلغت إلى البحر ما زودتني له من سلام وتحيات.. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعني إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة (يعني شرفة منزلها) ذات الفضل العميم على في مثل هذه الساعة، فأقف طويلاً عن الكتابة ضائعاً في بحار الذكريات. بل أن الكلمات تعصاني، فأبحث عنها ولا أجدها..

"أستودعك الله يا بيبي على أمل لقائك بخير وعافية. وقد أصبحت أنا لوتر بيبي"[٢].

تلك بعض رسائل أنطون الجميل إلى الآنسة مي، وقد طوى الزمن بينهما سنوات تمتعا فيها بهذه الصداقة الروحية، أو بهذا الحب الروحي، ثم ضرب الزمن بينهما بالفراق، وأحدث المرض الذي أصابها في أخريات حياتها شيئاً كثيراً من الفتور، لأنه شغل عنها في محنتها أيام كانت بمستشفى العصفورية بلبنان. وصرفته الصحافة والسياسة عن ذكراها، فتألمت أيما تألم.

---

[٢] كلمة "بيبي" Bébé تعني الطفل. أما كلمة "لوتر" L'autre فتعني الآخر.

على أنها مع عتابها عليه، وتألمها منه، كانت محتفظة بأدبها العالي، وعفة لسانها، وطهارة نفسها، فلم تذكره ولا غيره بسوء. وكان شعارها على الدوام هذه الأبيات التي علقتها في صدر بيتها في إطار خاص:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك أن أبدت إليك معايباً ... فصنها وقل: يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتي هي أحسن

وقد عاشرت بمعروف وسامحت أنطون الجميل، وفارقته قبل وفاتها بالتي هي أحسن.. ومن اللطيف أنه رحمة الله سئل مرة قبيل وفاته عن شعاره في الحياة، فكان جوابه هذا الشعار — شعار مي، صديقته القديمة ورفيقة النفس والروح.

وأذكر أنني كنت معه في دارها ذات ليلة، فالتفت إلى هذه الأبيات وهي معلقة في إطارها، وأخذ يرتلها ترتيلاً جميلاً، وبعد أن انتهى منها، قال:

– أعز ما يجول بقلبي من الأماني العيشة بسلام: سلام مع نفسي، وسلام مع الغير..!

ولعل هذه الكلمة الوجيزة في مبناها، والكبيرة في معناها، والتي جرت على لسانه في تلك الساعة الوجدانية، كانت تترجم عن حياته،

وتعبر عن أخلاقه بين الناس أصدق تعبير. فقد تعشق رحمه الله السلام في أعماله وأفكاره وفي معاملته لأصدقائه وخصومه، أن كان له خصوم، فلم ينزع إلى خصومة، ولم تعلق بنفسه سخيمة، ولم ينزلق إلى عنف، ولم يتورط فيما يتورط فيه أمثاله من ذوي الهمة والطموح في منافسة، بل كان سلاحه الكفاية والجد، ورداؤه الكفاح في هدوء وحكمة وحب للجميع.

عالمان في حياة الآنسة مي..شبلي شميّل ويعقوب صروف

أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني، ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الإخلاص والصدق والحمية، والتحمس لكل شيء حسن وصالح وجميل، لأنه كذلك، لا رغبة في الانتفاع به.

مي الأديبة النابغة التي قدرها الأدباء، وأعجبوا بها، وهاموا بأدبها، وتغنوا بنبوغها وروحها العالية.. هي مي العالمة الفاضلة التي قدرت العلماء وقدروها، وأعجبت بهم وأعجبوا بها، وأشادت بفضلهم، وأشادوا بسعة إطلاعها وإدراكها العظيم لحقائق الحياة، وكوامن الذهن البشري المبدع. فقد كانت إلى أدبها الباهر، وذكائها النادر، مفكرة ثاقبة التفكير، وافرة الثقافة، نافذة البصيرة موهوبة، تملأ عين العالم والأديب والفنان.

وقد تحدثت في أعداد ماضية من الهلال عن بعض من عرفتهم وعرفوها من الأدباء، وكانت بينها وبينهم صلات روحية، ورسائل أدبية طريفة. وهنا أتحدث عن عالمين أديبين من أصدقائها عرفتهما وعرفاها عن طريق العلم والأدب، وكان لها فيهما رأي، كما كان لها معهما ذكريات سمعتها منها في مجالسها، أو عثرت عليها بعد وفاتها في رسائل خاصة لم تنشر، وقد ضمنت هذه الرسائل بعض آرائها الناضجة، وإشاراتها الصائبة، ودعاباتها الشائقة، وكانت في كل ما تكتب أديبة

شاعرة وأن لم تقل الشعر، فهو عندها عاطفة ذائبة، وفكرة بديعة، في أسلوب رائع.

أديب فيلسوف

وأول هذين العالمين الكبيرين: الدكتور شبلي شميل الطبيب الفيلسوف، والأديب الذي تعشق العلوم الطبيعية، ودان بالعلم والطبيعة، ولم يدن بالأدب والأدباء على الرغم من أنه أديب. وكان يأبى أن يقول "أن من البيان لسحرا"، بل كان يهتف على الدوام: "أن من العلم لسحرا" وعنده أن الشعراء مشعوذون دجالون، وأن الله قد سخط القردة، فجعل منها شعراء وأدباء، أو على حد تعبيره "أدباتية". ومع هذا، فقد كان يقول الشعر ويجيد فيه.. حدثتني الآنسة مي أنه هام بالإعجاب بها فترة من الزمان، وجعل ينظم الشعر في صفاتها ومواهبها، ثم يمسك التليفون، ويقرأ لها ما نظم.. قالت: "وكنت استمع إليه وأطرب، ثم أضحك وهو يلقيها في أدني كأنما هو واقف على منبر".. وقد روت له هذه الأبيات في وصف مشهد من مشاهد الطبيعة.

وإذا الشـــمس ومـــا فـــي!! شـــمس مـــن معنـــى محجـــب
تتجلـــــى فـــــوق مـــــرج أخضـــر الوشـــى مـــذهب
مثـــــل بحـــــر زاخـــــر والمـــوج فيـــه يتقلـــب
اســـتقي الأزهـــار منـــه مـــاء حســـن لـــيس ينضـــب
حبـــذا زهـــر الربـــى مـــن كـــل صـــاف ومخضـــب

يتهـــــادى فــــــي نســـــيم	كتهـــادي الطفــــل يلعــــب
والنــــــــدى مــــــن فوقـــــه	حيـــران كالـــدمع تصـــعب
قلــــــق ممــــــا يعـــــاني	قلـــق القلـــب المعـــذب

وكان شبلي شميل من فلاسفة الطبيعة. وقد صور ناموس الجاذبية في الأجرام السماوية كناموس الحب البشري، فقال:

شوق تكامل من أدنى الوجود إلى	أعلى فأعلى إلى أعلى أعاليه
حتى تناهي وقلب المرء تلهبه	نار من الحب يذكيها وتذكيه

وقد أسمع الآنسة مي ذات يوم قصيدة في مطلعها:

هو الحب أكسير الحياة بلا مرا	ولولاه ما كان الوجود كما ترى

فضحكت رحمها الله، وقالت صدقت، ولكن اعتراضي شديد على كلمة "بلا مرا".. فإني أخشى أن يفتح ميمها القراء.. وكانت نكتة لاذعة.

عالم أديب

أما العالم الثاني فهو المرحوم الدكتور يعقوب صروف أحد مؤسسي المقتطف ورئيس تحريره، وأحد رجالات النهضة الثقافية في الشرق الحديث.. كانت تعجب به أعجابها بعالم وأستاذ جليل، وكان هو يعجب بنبوغها في عصر كانت الفتاة فيه بعيدة عن نوادي العلم والأدب، وقلما

كانت تحظى بمعاهد التعليم.. ثم أزداد إعجابه بها على الأيام كأديبة، مثقفة نادرة المثال، وكان يحل آثارها القلمية بالمكان الأرفع. وكانت هي تدعوه بأستاذي العزيز، وتارة تدعوه بذي التاج والصولجان، وأخرى بفرعون الجبار، أو بأستاذي توت المستبد، وهي تعني توت عنخ آمون.

وكثيراً ما كانت تداعبه في رسائلها إليه إلى جانب تقديرها لعلمه وفضله، وقد عاونته في المقتطف بكتاباتها النفيسة عن باحثة البادية، وعائشة التيمورية، وبعض الموضوعات الأدبية العلمية، وكان يصلها بعلمه وأدبه.

أهدى إليها في يناير سنة ١٩١٩ مجموعة المقتطف، وفيها الكثير مما ألف وترجم، فبعثت إليه برسالة بليغة ضمنتها ثناءها على هذه الهدية، وإعجابها بفضل المهدي، وأشارت فيها إلى الكلية التي تخرج فيها يعقوب صروف، وإلى أستاذه الدكتور هوردبلس، قالت:

"أستاذي العزيز

"بالأمس غمست قلمي الصغير في أشعة قوس السحاب، لأخط به تحية للدكتور هوردبلس.. من هو الدكتور هوردبلس، وماذا يهمني؟. أنه هذا الرجل الأميركي.. وأنا الفتاة السورية..

"هناك على شط الأزرق البعيد كلية تلثم الأمواج قدمها ليل نهار.. إني أعبد البحر لأني أرى فيه أتم صورة للأبدية على الأرض، وأعبد الكليات لأنها...

"ما أكثر الناس ولوعاً بالأسماء الضخمة، ولكن فلنحل قشرة الظواهر قليلاً، يصبح امتحان الجوهر ميسوراً. ما الكليات إلا كتاتيب تعلم المباديء والمبدئيات. والمرء باديء أبداً مهما كبر علمه، واتسعت معارفه.

"إذا كانت المدارس الابتدائية تعلمنا القراءة، فإن الكليات والجامعات لا تعلمنا إلا ذلك.. تلك تعلمنا كيفية جعل الحروف كلمات وعبارات. وهذه تعودنا تحويل الكلمات والجمل معاني وأفكاراً.. تلك تلقننا أبجدية اللغة، وهذه تدفع إلينا أبجدية العلم، أي أبجدية الحياة والنور.

"ولئن كثر الجالسون على مقاعد الجامعات، وكثرت العيون المحدقة بحروف الضياء الخفي، فما أندر العقول المتنبهة لهمس الوحي، وأقل الأيدي التي ما تسرب النور إلى ثنايا فكرها يوماً إلا رفعت مصباح العرفان تهزه في جو الحياة.

"هذا ما أردت أن أحيي به الدكتور هوردبلس، وأحيي في شخصه الكلية التي أنجبت لنا من أنجبت.. الكلية التي تعلمت أنت فيها أبجدية النور.

"والآن التفت إلى الزاوية اليمنى، فأرى الأثر النفيس الذي وضعته يدك الكريمة في تاريخ نهضتنا أولاً، ثم في مكتبي هذا الصغير. فحق لي القول بأن مقتطفنا صار مقتطفي أنا..

"فتحت اليوم أحد الأجزاء، فرأت عيني صورة رجل ترصع الأوسمة صدره، فقلت في نفسي أن أوسمتك أنت فوق جميع الأوسمة جمالاً. كل سنة من سني المقتطف وسام خالد على صدرك لا ينال الصدا من تبره، ولا تعرف الغش درره، بل أن ما فيه من السناء أبدى التألق على كر الدهور.

"كلما عكفت على مطالعته رأيتني طفلة صغيرة، وخلتك نبيا يقودني بيدي في حديقة فكرية، أشجارها من غرس نشاطك، وأثمارها حركات قلمك، والأطيار المغردة على أفنائها خيالات أفكارك. فما أبصر شجرة أو ثمرة أو زهرة، ألا سألتك أهي من صنعك؟.. فتضحك أنت من سذاجتي وتسير بي إلى ناحية جديدة من الحديقة الفيحاء، حيث أجد جمالاً جديداً، وتنسيقاً بديعاً. وإعجابي وسروري يتجددان مع كل خطوة من خطواتي.. أشكرك شكراً يعادل اغتباطي وفخري بهذه الهدية الثمينة..".

عكفت الآنسة مي على قراءة مجلدات المقتطف التي أهداها إليها الدكتور صروف، فوقفت عند مقالات دبجها عن بحيرة قارون بالفيوم بعنوان "فتاة الفيوم" في رحلة قام بها، وقرأت وصفه لهذه البحيرة بأنها

"استدارت على حواشي المرج كسيف سل على نجاد أخضر، وقامت جبال النوبة وراءها آكاما متساندة بين رمادي وبنفسجي حسبما يتعاقب عليها من ظلال الغيوم".

أعجبها هذا الوصف الشاعري، فبعثت إليه تذكره بأنه شاعر، وتروي له شعراً في هذه البحيرة كان قد بعث به إليها في رسالة خاصة. وهو:

وقـــارون مـــرآة الســـماء وماؤهـــا	بأســـماكه عنـــوان حـــي مولـــد
تحـف بهـا الأجبـال دكنـاً شـوامخاً	وأطلالهـــا تنبـــي وإن لـــم تـــزود
تقص أحاديث الملوك الأولى ابتنوا	صــــروحهو موقوفـــة التعبـــد
وشــــعب رأى كهانــــه أن أمــــره	إلـيهم جميعـاً مـن مسـود وسـيد
فـزال وزالـوا لا يـرى مـنهم سـوى	قبور بجوف الصخر في ظل معبد
كـــأن حيـــاة المـــرء رهـــن لدينـــه	يزاولـه فـي الأمـس واليـوم والغـد

أمنية لمي

وتقول له في الرسالة بعد أن ذكرت هذه الأبيات:

"وقد أدى بي ذلك إلى مطالعة كثير مما كتبته عن المصريين القدماء وآثارهم وفنونهم. وكل فصل أجمل من ماضيه". ثم تنتقل إلى الإشارة إلى ما نال باحثة البادية من تقدير المقتطف وإنصاف الدكتور

يعقوب لها. وتمنت أن تموت في حياته لكي ينصفها هو، لأن المنصفين قليلون.. قالت:

"لا شك عندي في أن كل كاتب يتمنى أن يكون له من يذكره على هذه الصورة بعد موته، وأتمنى أن ينالني ما نال باحثة البادية من حسن الحظ لأن المخلصين قليلون حتى بعد موت الكاتب. والعداء له، والغيرة منه، وتعمد تصغير شخصيته والنيل من مقامه يبرز إلى الوجود بعد سكونه في قلب الثرى. وعندنا على ذلك براهين شتى. وكفى أن نذكر ادجار ألن بو المسكين.

"نعم أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني، ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الإخلاص، والصدق والحمية والتحمس لكل شيء حسن وصالح وجميل لأنه كذلك، لا عن رغبة في الانتفاع به.

"وقد قال قوم أن هذه صفة حسنة. وإذا كانت لي صفة فهي تنحصر في هذه.. وأنا سعيدة بها لأنها كل شخصيتي.. بل أتمنى أن أموت في حياتك أنت لتقوم لي بذلك العمل المبارك، فأكون خالدة بخلود قلمك الذهبي لا باستحقاقي"!

تقدير ودعابة

وكانت مي في سنة ١٩١٩ تكتب بحوثاً عن باحثة البادية، بعد وفاتها بعام. وقد أقبل الصيف بقيظه فعاقها عن مواصلة الكتابة، وبعثت إليه برسالة ضمنتها الكثير من تقديرها له في أسلوب يمتزج بنشوة العاطفة والحنان والتقدير.. قالت:

"وأظن الأفضل أن أؤجل نشر ما بقى عن الباحثة إلى ما بعد عودتي من سوريا إذ أكون نلت الراحة اللازمة فينجلي منى الخاطر.. ولما أراني تعبة أفكر فيك وأقدركم أنت تعب كذلك، وكم يجب أن تسافر لتبديل الهواء ومشاهدة مناظر جديدة ووجوه جديدة. أن لهذا الانتقال تأثيراً كبيراً في أي أحد من الناس ولكنه للكاتب – خصوصاً إذا كان مفكراً مجداً من طبقتك – أكثر ضرورة منه لأي رجل غيره".. ثم تشير إلى رسالته الأخيرة التي أطرى فيها مقالها عن فيكتور هوجو، فتقول:

"يسرني جداً استحسانك لكلامي عن فيكتور هوجو. ولكن ما هو ذلك الكلام إذا قابلنا بينه وبين ما تبديه أنت في الموضوعات العلمية والاجتماعية والفلسفية والنقدية حتى في أبسط أحاديثك بحيث أنى لو حملت قلما ودونت كلامك لجاء منه خطاب أو محاضرة عالية الديباجة، مترابطة الأجزاء على أتم نهج عربي.. هذا حديثك وأنت تعرفه. وقد لا تعرفه، ولكنه كذلك على كل حال. وما أناقة رسائلك إلا من أناقته، وما

جمال هذا وتلك إلا من جمال الفكر الموحى.. أنما المرء مفصح أبداً عما يساوره من الخواطر ويخالطه من الأفكار.

"قرأت في المجلد العاشر مقاليك البديعين عن ملتون والمعري، ثم عن ابن خلدون وسبنسر، والمقابلة بين كل اثنين منهما.. ما أملح المقابلة وأتمها، وما أبلغ تلك الجمل القصيرة الموزونة ذات الألفاظ السهلة الفخمة، وألطف من كل ذلك أنك نظمت شوارد ملتون الشعرية أبياتاً عربية عصماء، ولا أعرف شيئاً أكثر صعوبة من ترجمة الشعر شعراً.

"وأني لأعجب كيف توصلت دفعة واحدة إلى إتقان الإنشاء في عصر لم يكن الإنشاء إلا حواشي وألفاظاً وزوائد لا تعني إلا قلة المعنى.. كيف توصلت إلى الأسلوب الكتابي الذي جمع بين أناقة اللغة ولباقة التعبير وعظمة الفكر وسعة المعرفة والإطلاع؟!"

ثم تشير في هذه الرسالة إلى حفلة خيرية أقامتها السيدات في بيروت وغنت فيها كريمته مدام تويني، ولتجامله بابنته، ثم لتكون هذه المجاملة تمهيداً لدعابة طريفة، قالت: "رأيت وصف حفلة خيرية أقامتها السيدات في بيروت وغنت فيها كريمتك مدام تويني، وسرني أن جريدة البرق وصفت صوتها بقولها أن فيه تغريد الشحرور، وحفيف الأوراق، وهدير المياه. وكل ذلك صحيح. أما أنا فإذا وصفت صوتها يوماً قلت باختصار أن نبوغك الفكري والكتابي تحول عندها إلى نبوغ موسيقى غنائي".

ثم تحدثت بعد ذلك عن صاحب البرق، وأرادت أن تداعب، فقالت: "أن في صاحبه عيباً واحداً هو أن هذا الرجل المسكين يدعي "بشارة".. أرأيت في حياتك أسماً أكثر ركاكة من هذا؟.. ولكن الرجل ليس ركيكا في غير اسمه على ما ظهر لي، وأنى لأحشره مع فصيلة دعيبس، وزعيتر، وشخاشيري، وقطة، ودبانة، وزغيب وشركائهم ليمتد

"ما أحرى هؤلاء التعساء بكتابة بيت المعري على بطاقة الزيارة تحت اسمهم المنكود الحظ:

هذا جناه أبي علي ... (وسأجني على غيري بعدي)

"كسرت البيت وحقه أن يكسر ويحطم عند سماع أسماء لا شعرية، ولكني أسامح صاحب البرق وأصفح له جناية اسمه أكراماً لما كتبه في وصف السيدة السى

عتاب بليغ

وأتهمها مرة المرحوم الدكتور صروف في رسالة بعث بها إليها بأنها تفكر بلغة أوربية قبلما تعبر عن رأيها بالعربية، فأجابته برسالة علمية أدبية بديعة فيها الفكرة الصائبة، والمناجاة البليغة والدعابة المستملحة، والإحساس المرهف وقد أشارت فيها إلى ما كان يعانيه الأدباء وقادة الفكر في عهد الملكية في فرنسا:

"أستاذي العزيز

"لما جاءتني رسالتك يوم الاثنين الماضي كنت غارقة في مطالعة مراسلة شائقة بين فيلسوفين عظيمين: فولتير ودالمبر، مراسلة دائرة حول أعظم أثر أدبي رأته القرون الحديثة: دائرة المعارف الفرنسية.

"يومئذ كان صاحبنا فولتير منفياً في سويسرا وكان دالمبير في باريس يتعاون وديدرون والانسيكلوبيديين الآخرين في إصدار دائرة المعارف جزءاً بعد جزء في ظل سليمان الشمال –كما كان فولتير يسمى فريدريك الكبير في ظله المعنوي فقط – وهو الذي كان ينقد بعض فلاسفة فرنسا وعلمائها رواتب شهرية تكفل لهم الغذاء، والكساء، والسكن، في حين أن الملكية الفرنسية التي كانت يومذاك في أعلى أعالي مجدها لم تكن تفكر فيهم إلا لتطاردهم وتنفيهم وتحرق مؤلفاتهم!! وبعد أن وعدتهم هذه بالمساعدة الأدبية قامت مدفوعة. من الأكليروس تصادرهم وتكثر العقبات في سبيلهم.. فرضت عليهم الرقابة، فقبلوها مرغمين، وعينت من الرقباء أجهلهم، فصار هؤلاء يحذفون كل ما لا يفهمون، ولم يكونوا يفهمون شيئاً!

"في هذه الحالة المدلهمة أخذ الرجلان الكبيران يتراسلان، وكان فولتير يساعد دالمبير عن بعد في تأليف الانسكلوبيديا. وكلاهما يشبه رفيقه بما لديه من عظمة فكرية ورغبة في خدمة المصلحة العامة وكره للجهل والدعوى والاستبداد. كذلك تشابهت منهما الرسائل في التظلم

وبث الشكوى، وفي معرفة الطبيعة البشرية والتساهل لغباوة الأغبياء. وما أقل كلمات المرارة الخارجة من قلبيهما المصدوعين. وما أعذب كلمات المؤاساة من قلميهما القادرين الملجمين. وما أبعد نقطة يدركها فكراهما في مدى المستقبل المنبسط أمامهما!

"دائرة المعارف موضوعهما الأولى يحومان حوله باهتمام كما يهتم الشريكان في عمل يخلدهما أمام وجه الأجيال، إلا أنهما لا يقتصران عليه، بل ترفرف حول هذه النقطة الجوهرية أسراب المواضيع الاجتماعية والفلسفية والعملية والدينية والسيكولوجية، حتى إذا عثرا على معنى ظريف أو نكتة أو ملحة، وقفا عندها يضحكان كأنهما طفلان لم تصادرهما حكومة، ولم يهددا بعقوبات أن لم تكن عقوبات محكمة التفتيش بالاسم، فهي هي بالذات، ولا تقل عنها قسوة وهولاً.

"كنت أقرأ معجبة ضاحكة مكتئبة متعزية معهما، ومسبحة الله كما يفعل المؤمن إزاء مشهد طبيعي رائع. أسبحه لأنه أبدع هذه العقول الكبيرة والنفوس السامية والأذهان المتوقدة، وأغبط كلا منهما على صديقه العبقري مقابلة بين هذه العقول، وبين عقل إحدى جاراتنا الإسرائيليات التي كانت في ذلك الصباح قد أقامت القيامة بين برابرة الدار وطهاتها وخدمها أجمعين لتصل إلى حل هذه المسألة الرياضية الهائلة "ربع الخمسين كام؟".

"في تلك الدقيقة جاء كتابك ترافقه المقدمة الهمايونية، فأغمضت عيني قائلة:

(مالي وللفيلسوفين أغبط الواحد منهما على الآخر، وأنا قد أسعدتني الحياة بصديق مثلهما أحدثه وأراسله، وأتلقى تأثيره الفكري العالي!).

"ثم فضضت الرسالة التي استأذنك بتسميتها روسية (ثورية) مرتين: روسية من حيث أنها كالسلطة الروسية مخلوطة تواريخ وخطوطاً وألوان حبر – وروسية من حيث أن نار الثورة الحمراء تشتعل فيها اشتغالاً من أول كلمة إلى آخر سطر.

"تجاهر بأنك ناقم ساخط راغب في معاقبتي وتعنيقي. وما هي ذنوبي؟.. ليس من الضروري أن يكون لي ذنوب في عالم الوجود. مادمت راغباً في إيقافي موقف المتهم، فإنك تخلقها من العدم. حتى المقدمة العظيمة لا تخلو من وخزة هنا، ونغزة هناك، ولطمة هنالك.

"لقد قلت مثلاً أني أفكر بلغة أوربية، قبلما أعبر عن رأيي بالعربية – قلت ذلك، ولم تسمح لي بالاحتجاج. وهل دفاعي يجدي نفعاً إذا استشهدت الإخلاص إني ساعة أكتب العربية أفكر بها، ولا أفكر بلغة أجنبية إلا عرضاً كما يفعل جميع الناس الذين إذا ما استحضروا شخصاً أو شيئاً استحضروا معه اللغة التي كانت مستعملة ساعة رأوه أو سمعوه لأول مرة.

"أعترف بأن معرفتي اللغات الأخرى قبل العربية جعلتني أشبه جماعتنا بتلك المرأة التي لم تخرج في حياتها من قرية لا تزيد منازلها على السبعة عدا. وكانت تقول فيها أنها أجمل مدينة في العالم، وإنها أم الدنيا. وتلك المعرفة جعلتني أسائل نفسي كلما قرأت مقالاً لبعض من يدعون أعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء قائلة: "وماذا وضع هؤلاء الأقطاب من ذاتيتهم فيما كتبوا، بل أين تلك الذاتية التي لا أجد لها أثراً؟".

"ثم مالي أنا أشرح ميولي وأبرر سروري اللغوي إذا كان هناك من يستحق الملام، فأنت هو. أنت الذي تنصلت من الأسجاع والحواشي والزوائد يوم كانت هذه روح العصر.. لو أردت أن أقلد أحداً لقلدتك، لكني أكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد وأنا أحب أن أكون أنا أنا في كتابتي.. — يا لطيف ما هذه الكبرياء والدعوى! هكذا ستقول أنت.. — يا لطيف ما هذا الظلم والاستبداد!. وهكذا أجيبك أنا..

"وهاك تهمة أخرى. تقول في رسالتك أني انتظر أول إشارة لأعفيك من المقدمة، كم أنت شرير ساعة تقول ما لا تعتقد. ولكني لا أريد أن أخاصمك، وأغفر لك كل ما جاء في الرسالة إكراماً للمقدمة.

"أكتب إليك والشمس تنزل درجات الأفق، وقد سبحت غيوم المساء كما في بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت. في جميع أطراف الأفق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة. وعلى

البسيطة مثل هذه اليقظة وتلك الحرارة. ما أجمل الشجيرات التي أنبتتها لنا كرماً مصلحة التنظيم، تبسم بأزهارها الكليلة على جانبي شارعنا.. هل ذهبت اليوم لشم النسيم، أما اكتفيت بالسير في شارع عماد الدين؟. ربما كنت الآن سائراً في الخلاء تنظر إلى هذا الغروب الساحر وتفكر بي.. أما أنا فلم أخرج من البيت في هذه الأيام التي كثرت، فيها على المعاكسات.

"فأمي تشكو ذراعها، وأبي يشكو ألماً في ضرسه، والتليفون ملخبط زي عقل العفريت كما يقول البربري. وهذه من الدواهي الصماء حقيقة.. وأنا شكتني إبرة غليظة تحت ظفر أبهامي. ثم رأت حضرة مدموازيل توتو أن تتحفني بصداقتها، وتعالجني بطبها الخاص، فعضت على الأصبع المريضة ومزقتها بمخالبها، فقلت ضاحكة:

"ما أشبه القطط بالفلاسفة أحياناً..!".

تمثال لصروف

وقد تطور إعجاب مي بالدكتور صروف في خلال رسائلها إلى شيء من العاطفة المرهفة بل صارت تعجب به إعجاب فتاة بأبيها أو صديقها الكبير. وكانت جياشة الشعور في كل ما تكتب إليه، ولكنها بما طبعت عليه من حياء الأنوثة، والتزمت في الوقار واحترام التقاليد قد تحولت عاطفتها إلى ألوان من الشعر المنثور. وقد كتبت إليه تهنئة بعيد ميلاده، فقالت:

"يا ذا التاج والصولجان

"نهضت الساعة. وبي فكرة واحدة وهي رسم مجموعة عواطفي طاقة تهنئة وتكريم لمناسبة يوم ميلادك الجميل. أو أن أرسم تلك الطاقة غضة نضرة زاهية جزلة، كما هي في الأصل الخفي. وأود أن أنفث في القلم قدرة سريعة خلابة لأقول ولو في سطر واحد ما أشعر به، وما أريد أن أعبر عنه. ولكن كيف أفعل وأدوات الرسم مبعثرة في هذا البيت الراحلين". أننا عائشون منذ أمس الأول في عجاجة غبار وتشويش تكتنفنا رعايتها وتشملنا غايتها من كل صوب وحدب.

"وضياع أدوات الرسم وتشتت آلات الكتابة خير، لأنك سترسل إلى نفسي نظرتك التي لها من الرياضي الهدوء والتحليل، ومن المفكر الإدراك والنفوذ، ومن الشاعر العطف والرواء، فترى تلك الطاقة في تربتها النفسية أزهاراً تتهدل على أغصان مهما عصفت فيها المعاكسات، وكافحتها أنواء الحياة، فإنها لا تزيد إلا متانة ونضارة. ونظرك فيما وراء المنظور أصدق وأبلغ من تعبير المنضد في عالم المحسوس.

"لو كنت اليوم في لبنان لقضيت فريضة الحج إلى حيث مشرق الشمس الفكرية منك وسيكون من مسراتي الكبرى في هذا الصيف أن أزور البقعة الصغيرة الكبيرة، التي بلا ريب سيقيمون لك فيها تمثالاً يوم يجتاز الشرق حد التحمس الوقتي إلى تأدية الواجب نحو كبار رجاله، الذين هم الكبار حقيقة، وليس أولئك الذين زعمهم في بلاهة كباراً.

"كذلك اليوم يزيد وضوح فكرة عندي أنشئها، وهي أن أقيم أنا لك تمثالاً من نوعه ومن صنعي الخاص. وذلك بمقالات متتابعة في المقتطف أحلل فيها شخصيتك وأستخرج عناصرها المختلفة، فترغم على نشرها عملاً بحرية النشر، وأكيدك، وأبهج نفسي ولا سيما أني أؤدي نحوك واجباً كم أهملناه لأننا جهلناك. عسى توفقني الحياة إلى نحت ذلك التمثال فأقول في كتاب جامع ما ألخصه الآن بقول القديس فرنسيس: "ليس أنبل في الحياة من العمل النبيل". فكيف إذا كانت الحياة كلها سلسلة أعمال نبل وكرامة. كيف بها إذا كانت كلها إشارة متمرن في رفع قبس النور والعرفان وسط دياجير الجهل والخمول!

"تلك كانت حياتك، وأنها لتجمع في هذا الصباح أمام عيني كشيء لامع جميل، بل كهذا الفجر الذهبي الذي يملأ الجو بتهاويل الصباح الأغر، فعش طويلاً طويلاً لتظل متابعاً ذلك العمل النبيل الذي ليس في الحياة أنبل منه، لتظل مستمراً على إعلاء يدك بتلك الإشارة المعنوية إشارة رفع قبس النور والعرفان.

"عش دواماً وقرنيتك الجليلة والذي تحبان في شباب القلب والفكر والجسم والأمل. وأقبل مني ما تشاء من عواطف المحبة والإعجاب والتهنئة والتمني الصادق الحاد".

الأستاذ فرعون

وقد رأيت كيف كانت تداعبه في رسائلها إلى جانب تقديرها لعلمه وأدبه وفضله، ولعله الكاتب الوحيد الذي كانت تبيح له أن ينشر من كتاباتها ما يشاء ويحذف ما يشاء، وإن كانت تشعر بشيء من المضاضة، فقد كان صروف يعاملها في ذلك معاملة الوالد، وكانت هي تنظر إليه كما تنظر إلى أستاذ لها ذي تاج وصولجان أو الأستاذ فرعون المستبد على حد تعبيرها في بعض رسائلها.

بعثت إليه برسالة مع إحدى محاضراتها التي اعتادت أن تنشرها في المقتطف فقالت في تواضع كبير:

"يا ذا الصولجان

"لدي كلام كثير منه كلام إعجاب بالمقتطف عموماً، وباب المسائل خصوصاً، ومنه كلام عتاب وتعنيف. نعم يا ذا الصولجان، أقول تعنيف وأعنيه بلا مداورة، وهو تعنيف لاذع، ولكن ضيق الوقت يجعلني أقصر الكلام على ما يتعلق بالمحاضرة الواصلة إليك.

"فإذا رأت الذات الهمايونية أن تنشرها كلها دفعة واحدة كان ذلك. وإذا رأت أن تشطرها كفؤاد نعوم بك شقير القائل في كتاب "طور سينا".

شـــطرت فــؤادي مـــن وســـطه   فشـــطر لـــذاك وشـــطر لـــذا

"يعني شطر للقطر السوري وشطر للقطر المصري – قلت إذا رأت الذات الهمايونية أن تعامل المحاضرة كما عامل نعوم بك فؤاده، فإن إشارتها حكم وإطاعتها غنم، وإذا رأت ألا تنشر ولا تشطر، فأرجو أن تعاد في القريب العاجل أو أن أخبر عما قدر لها لأكون على بصيرة.

"صباح سعيد وأسبوع سعيد يا أستاذي. ما أحلى أن أذكرك في هذه الساعة العذبة على توقيع شدو الأطيار ونفحات النسيم. إني أذكرك وأدنو بالخيال من الصولجان المحبوب مداعبة ومتبركة معاً.

الإمضاء

سكرتير نونو

ذات شاهانيه عليه

على أن الدكتور يعقوب صروف وأن أباح لنفسه أو أباحت له مي في بعض الأحيان أن يشطر من محاضراتها أو يؤجل نشر بعضها، فقد كان ذلك عن أسباب طباعيه وظروف عملية لا عن نقص في تقديره لها، أو عن افتئات عليها، فقد كان يقدرها كأسمى ما ينبغي أن تقدر به عبقرية مثلها، وقد أشاد بمكانتها في عالم الكتابة والتفكير غير مرة. ولعل مسك الختام أن نشير في هذا المقام إلى المقدمة التي كتبها عنها في كتابها "باحثة البادية"، ووصفها بأنها: "جارت أكتب الكتاب الأوربيين في هذا

النوع من البحث والنقد، ولا أتذكر أنني رأيت حتى الساعة من ضارعها فيه من كتاب العربية ولا من فأقها من الأوربيين"!

وقد وضعها في صف كارليل، وفيكتور هوجو، ولامرتين، من كتاب الغرب المجددين في الأخيلة البديعة والأسلوب الرائع وطريقة التفكير.

الفهرس

مقدمة.. د. خالد محمد غازي ٥

أديبان .. في غرام "ميّ" ٢٢

أطياف من حياة الآنسة مي ٣٣

الحب الروحي بين الآنسة مي وأنطون الجميل ٤٥

عالمان في حياة الآنسة مي..شبلي شميّل ويعقوب صروف .. ٥٩